(١٣)

الحروب الصليبية

obeikan.com

بينما كان نصارى بلاد الشام والعراق والحجاز ينعمون بقدر عظيم من حرية المعتقد والدين قبل ظهور الدعوة الإسلامية، فإن هذه الحرية استمرت بعد تأسيس الدولة الإسلامية في المدينة، حيث حفظ لهم البناة الأوائل للدولة الجديدة كامل حقوقهم وامتيازاتهم المدنية، بما في ذلك حرية التنقل وحرية العبادة. ويرى كثير من الباحثين أن الحروب الصليبية لم تكن في الواقع سوى حرب أمراء لحرب توسع إقطاعية استعمارية تهدف لاجتياح أوروبا اللاتينية بغزوات وحملات صليبية، تتمثل في الاستنجاد الذي أرسله الإمبراطور البيزنطي «أليكسوس كومنينوس» إلى البابا «أوربانوس الثاني» (أوربان الثاني) عندما غزا السلاجقة أراضي الدولة البيزنطية في آسيا واكتسحوها حتى بحر مرمرة، وبعثوا الفزع في أهل القسطنطنية. ورأى البابا الكاثوليكي في استنجاد الإمبراطورالبيزنطي فرصة تاريخية لاسترجاع الكنيسة البيزنطية إلى حظيرة روما، (يشار إلى أن الخصام والانشقاق بين الطائفتين: الروم والكاثوليك كان قد حدث عام ١٥٤٥)،[١] تماماً كما كانت الحركة النازية الفرصة التاريخية للحركة الصهيونية ولليهود في كل بقاع الأرض، ودعوة صريحة ليهاجروا إلى فلسطين.

والحملات العنيفة على الإسلام والمسلمين، بشتى أشكالها السياسية والدينية والاجتماعية، لم تهدأ. وباتت تذكّر بالماضي البعيد، عندما بدأت أوروبا تتهيأ لانطلاقة دينية واقتصادية في مواجهة عالم الإسلام من جهة، وعالم بيزنطة المتقهقرة أمام قبائل الترك الآسيوية من جهة أخرى، خلال الحروب الصليبية. وليست هذه الحركة الجيو- سياسية، إذا ما وضعت في إطارها الصحيح، إلا فصلاً من فصول الصراع والتفاعل بين الشرق والغرب الذي بدأ بحروب طراودة وفارس في الأزمنة الغابرة بالسيطرة الاستعمارية الغربية.[٢]

وبرأي الباحثين، فإن الحملات الصليبية التي قادتها أوروبا اللاتينية، يوم أراد البابا أوربانوس الثاني أن يوحد القوى العسكرية المشتتة تحت سلطة الأمراء والملوك في عملية حشد عسكرية، كان لها هدف محدد يبعد آلاف أميال، وهو "تحرير" بيت المقدس وقبر المسيح، بزعم توحيد المسيحية. بينما نرى أن الحروب الصليبية التي قادتها أوروبا اللاتينية كانت قد بدأت منذ اليوم الأول لبلوغ العرب والمسلمين أطراف

---

(١) سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب، دار العلم، بيروت ١٩٨١، ص ١٣٥.

(٢) أنور الجندي: تاريخ الإسلام، دار الأنصار، القاهرة ١٩٧٩، ص ١١٥.

أوروبا في شبه الجزيرة الأيبيرية (الأندلس) وصقلية، كما كانت امتداداً لمعارك الدولة الرومانية البيزنطية مع العرب والمسلمين طيلة العهود السابقة.(١)

وبعد الف عام ونيف، تتجدد الحشود والحملات في أكبر غزو إمبراطوري تشنه وتقوده الولايات المتحدة ومعها أوروبا، في غزوة همجية لم تبقِ ولم تذر، أعادت بلاد الرافدين إلى ما قبل العصر الصناعي، بهدف نهب ثروات المنطقة وتوفير الحماية والأمن للعدو الصهيوني بذرائع ثبت زيفها. وحينما تفتقد البوصلة الأخلاقية، يتم تبرير الغزو والسطو والاستباحة والقتل والنهب والتوسع. وفي مثل هذه الفضاءات، تهجع الكراهية في اللاوعي، ويتنامى الشعور بالظلم والإهانة، ولا يعود المواطن العربي يصدق هؤلاء الذين أتخموا العالم بالحديث عن الحرية وحقوق الإنسان.

وإذا كان جورج بوش الابن يدافع عن فعله السياسي، لا سيما قراره بغزو العراق بعد أفغانستان، وكذلك خلفه باراك أوباما، فإن اعتراف بوش الصريح والواضح بأنه شن الحرب على العراق جراء معلومات مضللة، وحصل ما حصل فيها من تدمير للدولة العراقية، وحل لمؤسساتها، فضلاً عن اعترافه باستخدام أسلوب الإيهام بالغرق، إنما يرتب عليه مسؤوليات جسام قانونية وسياسية وأخلاقية، ما يفرض على الولايات المتحدة التحقيق معه وتقديمه إلى العدالة، ومعه كبار المسؤولين في إدارته الذين أضافوا موبقات جديدة لتاريخ الولايات المتحدة، تاريخ الإبادة والدم والحرب، التي اتسمت بها الحملات الصليبية، كما اتسمت بها القوات المسلحة الأمريكية التي يوجهها ويسيطر عليها «صليبيون»، حسب قول الإعلامي الأمريكي الشهير «سيمور هيرش» الذي يواجه انتقادات في الولايات المتحدة بسبب محاضرة ألقاها بهذا الخصوص في الدوحة بقطر، (٢٠/١/٢٠١١). وأشار «هيرش» الذي يعتبر من أهم الصحافيين الاستقصائيين في الولايات المتحدة، إلى أن مستشاري الرئيس السابق جورج بوش الابن، المحافظين الجدد، كانوا يعملون وفقاً لسياسة تقول: «سنحوّل المساجد إلى كاتدرائيات». وأضاف «هذا ليس موقفاً لدى جزء من الجيش، بل إنه حملة صليبية بالمعنى الحرفي، يعتبرون أنفسهم حماة المسيحيين، إنهم يحمونهم من المسلمين مثلما حصل في القرن الثالث عشر.(٢)

هكذا، فإن أي تمدد عربي إسلامي، أو شرقي بصورة عامة، كان يملأ قلب أوروبا غيظاً وحقداً وتآمراً وعدوانية وعنصرية. ولذلك، فبعد أن وصل العرب والمسلمون إلى

(١) عبدالعزيز سيد سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار المعارف - بيروت ١٩٦٢، ص ٢١٠.
(٢) جريدة الخليج الإماراتية، العدد ١١٥٧٠ - ٢٢/١/٢٠١١.

أطراف الأندلس، شعرت أوروبا بالخطورة وبدأت تتحين الفرصة المناسبة للانقضاض على عدوها، من عرب ومسلمين وأقباط وأخلاط عرقية ودينية مختلفة. ولم يكد يصاب تماسك الدولة العربية الإسلامية بالضعف، وينالها التجزؤ والانقسام أواخر الألفية الأولى، حتى اعتقدت أوروبا اللاتينية، بغيظها وكراهيتها وحقدها وعدوانيتها وعنصريتها، بأن العصر الألفي الثاني بدأت إطلالته؛ وهي كانت تبشر له من خلال كنيستها الكاثوليكية. وبهذا الزعم والاعتقاد الواهم، شرعت الجموع الغفيرة، بآلافها المؤلفة، تتدفق على الأرض المقدسة من العالم اللاتيني. وازدادت الحملات الصليبية اندفاعاً في ٢٦ نوفمبر / تشرين الثاني ١٠٩٥، حين وجه البابا أوربان الثاني نداء في مدينة «كليرمون» الفرنسية، يحرض فيه المسيحيين على انتزاع كنيسة القبر المقدس في القدس من أيدي المسلمين، وهو النداء الذي جاء بعد نداء الإمبراطور البيزنطي «كومنينوس» في العام ١٠٩٤، إلى البابا.

قاد «بطرس الناسك»، أهم خطباء التحريض والكراهية في الحروب الصليبية، الجماهير (١٠٩٦) إلى بيت المقدس، تحت راية وشارة الصليب. والإسلام في كل هذه المراحل، من إعلان البابا أوربان الثاني (١٠٩٥)، إلى إعلان المحافظين الجدد (٢٠٠١)، إلى الآن، كان يوصف بأنه دين العنف والسيف والتعصب والانغلاق.

ولما فشلت حملة بطرس الناسك، أخذ النبلاء.. والزعماء.. في أوروبا يستحثون لتأسيس إمارات صليبية في بلاد العرب والمسلمين، تكون على شاكلة المستوطنات الصهيونية في فلسطين المحتلة؛ تؤمن مصالحهم ومصالح الدول الداعمة والمشاركة في تلك الحروب، تماماً كما هو المحتل والغازي الأمريكي لبلاد الرافدين، حيث أخذ على عاتقه توزيع النسب لدول التحالف وشركائها، من نفط العراق وثرواته.

لم تتوقف الحملات الصليبية خلال قرنين كاملين. فمنذ بدأت إلى بلاد الشام العام ١٠٩٨، لم يتوقف ورود جموع وحشود صليبية متصلة، على هيئة حجّاج.. إلى بيت المقدس. ويمكن تقسيمها إلى ثمان حملات هي:

١) الحملة الأولى (١٠٩٧-١٠٩٩م) نحو بيت المقدس.
٢) الحملة الثانية (١١٤٧-١١٤٩م) نحو ساحل الشام.
٣) الحملة الثالثة (١١٨٨-١١٩٢م) على ساحل الشام، واستولت على عكا بعد سقوط القدس بيد صلاح الدين الأيوبي وكان على رأسها «ريكاردوس قلب الأسد، ملك إنجلترا».
٤) الحملة الرابعة (١٢٠٤م) وقد اتجهت نحو القسطنطينية.

٥) الحملة الخامسة (١٢١٧-١٢٢١م) بقيادة ملك المجر واتجهت إلى مصر.
٦) الحملة السادسة (١٢٢٧-١٢٢٩م) بقيادة فريدريك الثاني، واتجهت إلى عكا.
٧) الحملة السابعة (١٢٤٨م) وكانت بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع المعروف بالقديس لويس، واتجهت إلى مصر بعد عودة القدس إلى المسلمين عام ١٢٤٤م.
٨) الحملة الثامنة (١٢٧٠م) واتجهت إلى تونس، بقيادة القديس لويس، وتوفي اثناءها.(١)

وإذا أردنا تقييم هذه الحروب الصليبية بحملاتها خلال قرنين كاملين، فإننا نجدها مرت بثلاث مراحل:

أ- ظفر الإفرنج (الصليبيون) في المرحلة الأولى الممتده بين عامي (٤٢٩-٥٣٩هـ / ١٠٩٨-١١٤٤م).

ب - أما في المرحلة الثانية فقد شهدت ردّة فعل عند العرب والمسلمين تمثلت بمقاومة الصليبيين مما ساعدهم على تحرير إمارة (الرها) عام ٥٣٩هـ بقيادة نور الدين زنكي، وتحرير القدس على يد صلاح الدين الأيوبي.

ج - شهدت هذه المرحلة أيضاً انتصار المماليك على الصليبيين واستطاعوا إجلاءهم نهائياً عن الشرق العربي والإسلامي وذلك في العام ٦٨٩هـ/١٢٩١م.

وحقق الصليبيون من خلال الحملات الظفر بالشرق وإقامة عدة ممالك (إمارات) هي:

إمارة الرها وإمارة طرابلس وإمارة أنطاكية وإمارة بيت المقدس. وفي سنة ١٠٩٩م، أي في مطلع الألفية الثانية للميلاد، اتجه القائد الصليبي (ريموند) نحو الجنوب باتجاه بيت المقدس، واستولى على معرة النعمان ثم حصن الأكراد وعرقه في شمال لبنان وطرطوس، وبعدها توجه إلى القدس بمساعدة موارنة جبل لبنان الذين أمدّوه بالرجال وعرّفوه على الطرق فوصلها. وكان عديد حملته أربعون ألف مقاتل، وقد تمكن من فتح القدس في يوليوز/تموز ١٠٩٩، بعد سقوط حماتها من الفاطميين.(٢)

وقد أعمل الصليبيون السيف بأهل القدس، وصبوا جام حقدهم عليهم أطفالاً

---

(١) قاسم عبدو قاسم: الحروب الصليبية، عالم المعرفة ١٤٩، ص ١٠٩، وانظر: سيد على الحريري، الحروب الصليبية، دار التضامن. بيروت ١٩٨٨، ص ٦٠.

(٢) المصدر نفسه.

ونساءً ورجالاً، حتى تكدست أكوام الرؤوس والأيدي والأرجل في شوارعها وأزقتها، في حين أن صلاح الدين عندما فتحها حفظ أهلها وأطلق سراح الذين لم يدفعوا الجزية.(١)

وبعد النزاع الذي نشب بين فروع السلالة الأيوبية، استرجع الصليبيون بعض المراكز مثل: «بيروت وصفد وطبرية وعسقلان، حتى أن القدس عادت اليهم سنة ١٢٢٩م. وبعد فترة نشب نزاع بين البنادقه وفرسان الهيكل وفرسان القديس يوحنا، وكان يلجأ بعضهم إلى المسلمين لحمايتهم بعضهم من بعض.

وظلت القدس تحت سيطرة الصليبيين حتى العام ١٢٤٤. وبعد وصول المماليك إلى عرش السلطة في مصر، عقب موت الملك الصالح نجم الدين أيوب (١٢٤٩م) وظهور أمير المماليك الرابع الملك الظاهر بيبرس (١٢٦٠–١٢٧٧م)، تمكن بيبرس من تسديد الضربات للصليبيين وحال دون تقدم المغول (الذين أعملوا سيفهم في أهل العراق، حتى باتت مياه دجلة والفرات قانية بلوم الدم) في معركة عين جالوت في فلسطين (١٢٦٠م). ولم يبق في يد الفرنجة سوى مدينة عكا التي حاصرها الأشرف خليل ابن قلاوون، في مايو/أيار ١٢٩١م، فاستسلمت له، وكانت آخر معاقل الصليبيين في الشرق.

مع إنتهاء الحروب الصليبية في الشرق، بسبب نمو قوة الدولة الإسلامية في مصر واستعادة وحدة البلاد تحت رايتها، بدأت الجيوش الصليبية الغربية تفتش عن مواطن الضعف عند المسلمين في الأندلس وجزر البحر المتوسط. وقد استطاع الغرب أن يسترد صقلية، وإزالة أجزاء كبيرة من الدولة الإسلامية في الأندلس، بعد تفرّق الأمراء المسلمين والإيقاع بينهم وتمزيق إماراتهم. وقد تضامن أمراء الفرنجة وتضامنت معهم ممالكهم في مواجهة الوجود العربي الإسلامي في الأندلس، وباستعادتها تم إخراج العرب والمسلمين من أوروبا..

وإذا أردنا أن نقيّم حركة الصراع العربي – الغربي من خلال حملات الحقد والكراهية والدم والإبادة والتوسع الاستعماري، التي اتسمت بها ممارسة وهدفاً الحروب الصليبية، فإن ما يلفت هو الاستجابة بالتحدي والكبرياء كتعبير عن الإرادة والكرامة، ما نفتقدها اليوم في مواجهة المشروع الأمريكي – الغربي – الصهيوني. فما يكاد الصليبيون يغزون بلاد الشام، حتى تخرج الجيوش في العراق لمنازلة

---

(١) المصدر نفسه.

المعتدين؛ ولا يكاد الصليبيون يتحركون نحو مصر، حتى تنقض جيوش الشام للذود عنها؛ ولا يكاد الناصر صلاح الدين يثبت قدميه في مصر، حتى يسخّر جميع مواردها البشرية وطاقاتها المادية لطرد الصليبيين من دمشق. ولا يكاد «أرناط» حاكم الكرك الصليبي يخرج في البحر لتهديد الحجاز، حتى يتحرك أهل مصر لدفع الخطر عن الحرمين.[1] وهذا ما تؤكده حقيقة كالشمس ساطعة، (إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى) ، تجلّت في وحدة بشرية متراصّة لمواجهة الكيان الاستيطاني الصليبي، الذي دنس الأرض والمقدسات، لتحقق الأمة وحدتها وكأنها البنيان المرصوص، في استحضار إرادتها وقدراتها وطاقاتها وذاتها التاريخية، في الانتصار المجيد باقتلاع الصليبيين من الأرض العربية.

غير أن الحروب الصليبية قوّت نفوذ البابوات، ورفعت شأن البابوية. فهم الذين بشّروا بها ودفعوا قسماً كبيراً من نفقاتها، وأرسلوا بعض ممثليهم ليقودوها، وباعوا صكوك الغفران لمن كان يشترك فيها؛ فأصبحوا، وقد التفّ حولهم الناس، قادرين على فرض سلطتهم على رجال السياسة، وتوجيه سياستهم بما يوافق أهواءهم ومخططاتهم. لا بل إن البابوات، بسلطتهم الزمنية، أصبحوا قادرين على عزل أباطرة الغرب عن عروشهم، واستطاعوا أن يوجهوا النصرانية الكاثوليكية نحو سياسة خاصة بهم، ومن ثم أخذوا يوجهون حملات الكراهية، الحملات الصليبية الاستعمارية، بأنفسهم.

أما بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية، التي أشعلت الحروب الصليبية بعد النداء الذي وجهه إمبراطورها إلى البابا في روما، وناشده التدخل لإنقاذ بيت المقدس وحماية الحجاج الوافدين إليها من أوروبا.. فإن هذه الإمبراطورية بدأت تتهاوى بتأثير تلك الحروب، كما هي الولايات المتحدة الأمريكية، التي بدأ العد التنازلي لهيبتها ومكانتها وسطوتها وعدوانيتها وسياسة القهر والإبادة والعنصرية والهيمنة التي مارستها شرقاً وغرباً، بفعل الحروب التي شنتها والأزمات الاقتصادية المتعاقبة التي خنقتها، والعولمة التي انكشف مستورها، وأدواتها المالية التي اعتمدت على مبدأ أن هناك أحمقَ يولد كل دقيقة. أما العولمة فاعتمدت (كما يقول د. عبدالحي زلوم في كتابه المرموق "أمريكا وإسرائيل الكبرى"، وفي كتابه أيضاً، "نذر العولمة، أمريكا تريد والله فعّال لما يريد") على مبدأ أن العالم قد أصبح مسرحاً للتفتيش عن هؤلاء الحمقى؛ وهي بداية النهاية، بل هي مسامير في نعش المشروع الإمبراطوري الأمريكي.

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٢٢ (قاسم عبدو قاسم ـ الحروب الصليبية).

فالحروب الصليبية تأسست على الأحقاد الغربية ضد العرب والمسلمين. وسرعان ما انعكست هذه الروح العدائية بشكل واضح في الآثار الأدبية، خاصة في «أنشودة رولان» حيث عمد كاتبها إلى نفث سموم وأحقاد الصليبية الغربية في أشعاره، معتبراً الإسلام هرطقة أو بدعة؛ فيما يصور خاتم المرسلين محمد صلى الله وسلم كقائد غريب الأطوار، يتملكه الشيطان. أما عادات وتقاليد المسلمين، فتتلخص بالغش والسرقة وتعدد النساء. وفي كتاب «شريعة السراسنة» الذي راج في فرنسا، تم تصوير الديانة الإسلامية وكأنها مجموعة من الخرافات الشيطانية.(١)

وها هي القدس الآن، وفلسطين بلد الرباط وأرض الإسراء والمعراج، بهلالها وصليبها، تعيش المأساة نفسها في ظل "مملكة استيطانية" جديدة، جاءت في حملة مشابهة من الغرب وما زالت مؤيدة ومدعومة منه. وإذا كانت حملة الفرنج الأولى قد احتمت وتزينت بالصليب، فإن المملكة الاستيطانية الثانية (الكيان الصهيوني) سارت على الدرب ذاته وخرجت بالسيف من التوراة. بمعنى أن الوحدة الفكرية والعضوية التي جمعت وتجمع بين التراث الديني اليهودي والصهيونية، تجعل من التراث - الأسطورة، أساساً دينياً، ومن الصهيونية عملاً سياسياً عنصرياً لمفهوم واحد هو الفكرة اليهودية الصهيونية التي تجد صدىً وتفهماً وتأييداً مطلقاً لها من الغرب الذي يتداخل عقائدياً مع أساس الدين اليهودي، والتي تستمد شرعيتها من «العهد الإلهي» الذي يتلخص بالاستيلاء على فلسطين وبناء الهيكل لتكون القدس بالتالي للكيان الصهيوني، ويبسط شذاذ الآفاق، قطعان المستوطنين على الأرض كما "وعدهم" الههم في قوله: «هكذا قال السيد يهوه لصهيون: يكون الملوك حاضنيك، وسيداتهم مرضعاتك، بالوجوه على الأرض يسجدون لك، ويلحسون غبار رجليك».(٢)

هذه السطوة اليهودية الصهيونية، أمام هوانِ تعيشه الأمتّان العربية والإسلامية، تأتي في سياق الأهداف التي تسعى الصهيونية إليها، ممثلة بالمملكة الإستيطانية الجديدة التي يريد البعض أن يكسب ودها ويتوسلها، وفي موازاتها السطوة الأمريكية، أي مثيلتها بوصفات وإملاءات البيت الأبيض الأمريكي – هذه السطوة المتمردة على القوانين والشرائع الدولية، وتلك التي نصّبت نفسها على العالم.

ولم يتوقف سيل العداء في الخطاب السياسي الغربي. فبعد أن نصّبت الولايات المتحدة الأمريكية نفسها وصياً على دساتير الأمم مع نهاية الحرب الباردة، واشتعال

(١) ر. ساوثرن، صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى، معهد الإنماء العربي، بيروت ١٩٨٤، ص ٥٥.
(٢) عجاج نويهض: بروتوكولات حكماء صهيون، دار الاستقلال، بيروت ١٩٩٦، العهد القديم، سفر أشعيا.

حرب الخليج الثانية، وصلت إلى موقع مهيمن لم تصله أية دولة في العالم من قبل. فكل قطيعة تاريخية تفرض قراءة جديدة وتأويلاً جديداً ما يستوجب إيجاد نموذج جديد للبيئة الدولية الجديدة. وبعد «فرنسيس فوكوياما» في كتابه ذائع الصيت (نهاية التاريخ..)، حاول «صموئيل هنتينجتون» في كتابه (صدام الحضارات) و«هنري كيسنجر» في كتابه «دبلوماسية»، تقديم هذا النموذج الجديد، لكن «زبيغنيو بريجينسكي» تخطّى الإثنين معاً وانصرف إلى تحليل عميق للجغرافيا السياسية وللأهداف الاستراتيجية التي يجب على الولايات المتحدة أن تسعى لتحقيقها إذا أرادت الاستمرار في الهيمنة الحالية على العالم.

يقول «بريجنسكي»: «.. وحتى يستمر نهج الهيمنة ويستمر التفوق الأمريكي، يجب السيطرة على الكتلة الأوراسية ـ الشرق أوسطية من محدداتها الجغرافية ـ حيث توجد معظم مصادر الطاقة وثلثا الإنتاج العالمي، ومن هذا المنظور فإن السياسة الأمريكية ستشبه إلى حدٍ بعيد سياسة بريطانيا الاستعمارية في ما مضى. أما عن الشرق الأوسط، المنطقة الإستراتيجية، فيرى «بريجينسكي» أن الولايات المتحدة هي القوة الوحيدة القادرة على إحداث أي تغيير ممكن، كما أثبتت حرب الخليج الثانية. ويتساءل «بريجينسكي»: هل تحتاج الولايات المتحدة إلى شركاء والحلفاء كثيرون؟ ويجيب: إن هكذا شراكة يجب أن تقوم مع أوروبا، لأنها بالمعنى العريض تمتلك مع أمريكا حضارة مشتركة ناشئة من تقليد مسيحي مشترك، وهي الشراكة التي لا تتعارض مع دخول تركيا في الاتحاد الأوروبي.[1]

أزعم، في هذا المقام، أن الصهيوني «بريجينسكي» ومن خلال كتابه (رقعة الشطرنج الكبرى) رسم الصورة التي تعيشها أمتنا العربية ـ الإسلامية راهناً. بل ورسم حال الأمة التي كانت عليه وتعيشه سنة ٦٥٦هـ عندما دخل التتار بغداد،[2] وعندما دنس الغزو الصليبي أرض العرب والمسلمين، وأرض الإسراء والمعراج وسقوط القدس ١٣/١٤ يوليو/تموز ١٠٩٩،[3] مروراً بسلسلة الانهيارات العربية منذ نكبة

---

(١) زبيغنيو بريجينسكي (مستشار الأمن القومي الأمريكي السابق): رقعة الشطرنج الكبرى، دار بيار باريس ـ الترجمة الفرنسية ١٩٩٨، عرض: غسان العزي، انظر: جريدة الخليج الإماراتية، العدد ٧١٢٤ ـ ١٩٩٨/١١/٢٠.

(٢) عبدالعزيز الدوري: التكوين التاريخي للأمة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت ١٩٨٦ ص ١١٨.

(٣) حسن علي خاطر: موسوعة القدس، المجلد ٢، المجلس العلمي الفلسطيني ٢٠٠٤ ص ١٢٧.

١٩٤٨ حتى الآن، كونها جزءاً لا يتجزأ من الانهيار الكبير الذي تعاني منه الأمة منذ الاكتساح العسكري الصليبي الذي مارسه الغرب ضدها منذ قرون، في حرب توسعية إقطاعية استعمارية، قادتها أوروبا اللاتينية بكنيستها الكاثوليكية وحضورها الفاتيكاني؛ هذا الحضور الذي غدا سلطة زمنية متجددة، بعدما تولى البابوات التبشير بالحروب والغزوات الصليبية وتغطية نفقاتها وقيادتها، مضفين عليها طابع الحروب المقدسة، في حين أن أهداف تلك الحملات كانت بعيدة كل البعد عن مسألة الدين ونشر المسيحية. غير أنها قوّت نفوذ البابوات ورفعت شأن البابوية التي فرضت وصايتها على الفكر، مدافعة عن سلطانها الزمني والروحي.

ومن موقع سلطتهم تلك، لعب الباباوات دوراً أساسياً في تحريك التوجهات الاستعمارية الأوروبية، حتى أن الكنائس أضفت على الصراع الديني في داخل أوروبا الصفة المقدسة ذاتها. فقد انعكس الخلاف بين الكنائس صراعاً مريراً، فاضطهِد الكثالكة حيث كانت السلطة للبروتستانت، واضطهِد الأخيرون من قبل الكاثوليك. وحتى عام ١٧٥٠م، الذي شهد انخفاضاً في حدة العداءات الدينية، كان اضطهاد أتباع المذاهب الأخرى، والحروب، تحمل صفة الحروب الدينية، وتوسم بالقداسة أيضاً.

وفي ظل هذه الصراعات، بقيت الكنيسة الكاثوليكية هي الأقوى؛ إذ كانت تقوم على أساس تنظيم هرمي قوي متماسك، يتربع على قمته الحبر الأعظم. وإن كانت عصمة البابا عن الخطأ لم تُقرّ بعد كعقيدة من عقائد المذهب الكاثوليكي،[١] فإن المكانة التي كان يتمتع بها الحبر الأعظم كانت تجعل منه مرجعاً للأساقفة في نزاعاتهم مع حكومات بلادهم. وكان الأساقفة، كافة، يُعدّون من الشخصيات المرموقة. وكان أسقف روما، بصفته بابا، عاهلاً دنيوياً، يحكم إيطاليا الوسطى والولايات البابوية. وكان الأكليروس ككل يملكون ثروات طائلة، وكانت أملاك الكنيسة معفاة من الضرائب بصورة عامة، وكان للكنيسة قانونها الكنسي ومحاكمها الكنسية بغية تأمين حماية أملاكها وفرض رقابتها على رجال الدين.[٢]

وبعد انطلاقة الفاتيكان، وغياب البابا بيوس الثاني عشر (توفي ١٩٥٨) المتهم من الحركة الصهيونية والمنظمات والجماعات الصهيونية المسيحية المؤيدة لها، بمساعدة النازية، تم في ١١ فبراير/شباط ١٩٢٩ التوقيع في روما على معاهدة

---

(١) روبرت بالمر: الثورة الفرنسية وامتداداتها، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٢، ص ٤٢-٤٥.

(٢) المصدر نفسه.

تاريخية بين «موسوليني» الزعيم الإيطالي، وبين أمين سر الفاتيكان، من قبل البابا بيوس الحادي عشر، تقضي بتنظيم العلاقة بين روما والفاتيكان، وإنشاء دولة الفاتيكان، ما سمح بتلك الانطلاقة. ومن ثم انتخب البابا يوحنا الثالث والعشرين، الذي وافته المنية في حزيران/يونيو ١٩٦٣، دون أن يقطف ثمار توجهه بإحداث توافق بين الكنيسة والأوضاع الراهنة في العالم.(١)

تابع البابا بولس السادس نشاط سلفه، وفي عهده ظهرت نتائج المجمع الفاتيكاني الثاني عام ١٩٦٥، حيث وضع البابا مبادئ وأسس تجديد الكنيسة وتحديثها بغية تسهيل عملية توحيد المسيحيين أملاً في أن تزيد الكنيسة من انفتاحها على العالم المعاصر، ما اعتبر في حينه بمثابة عودة الكرسي البابوي للعب دوره على الساحة العالمية.(٢)

كان عهد «بولس السادس» حافلاً بالنشاط، وساعد في ذلك على استعادة أوروبا لعافيتها. ولكن الكنيسة البروتستانتية الأمريكية لم تكن تنظر بعين الرضا لاستعادة الفاتيكان دوره. وفي المقابل، فإن تأييد الفاتيكان للغرب في الحرب الباردة، واستمرار موقفه المناهض للشيوعية، لم يكن ليشعر الاتحاد السوفييتي بالارتياح، إذ بدا الفاتيكان وكأنه جزء من المعسكر الغربي المناهض للسوفييت ودول الكتلة الشرقية الدائرة في فلكه حينها.(٣) كما كان على الفاتيكان أن يحدد موقفه من حركات التحرر التي عمت مختلف أرجاء العالم، وشارك في «لاهوت التحرير».(٤) ففي عام ١٩٦٨، عقد عدد من رجال الدين واللاهوتيين ندوة في مدينة البندقية جرى فيها نقاش حر تحت شعار «الظلم الاجتماعي والثورة» عالجت مواضيع عدة بما في ذلك اللجوء إلى العنف من قبل رجال الدين المسيحيين. وجاء في واحدة من الخلاصات التي توصل اليها المنتدون: «نحن المسيحيين كأعضاء في الأمة، علينا أن نقر بدورنا وواجبنا في تحمل مسؤولياتنا، إذ أننا بصمْتنا وانعزالنا نكون مساهمين في الخطيئة، وعلى الكنيسة أن تكون في خدمة أولئك المناضلين وعلى صوت الكنيسة أن يرتفع عالياً داوياً دفاعاً عن الإنسان المسحوق.(٥)

---

(١) السيرة التاريخية للدبلوماسية الفاتيكانية، صحيفة الديار- بيروت، ١٧/٤/١٩٩٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) مصطفى طلاس: راعي القدس، إيلاريون كبوجي، دار طلاس، ص ٥٥-٥٦.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.

عقب وفاة البابا بولس السادس، انتخب خلفاً له يوحنا بولس الأول، الذي لم تدم ولايته سوى ثلاثة وثلاثين يوماً، وأعقب ذلك انتخاب الكاردينال «كارول فويتيلا» رئيس أساقفة وارسو البولندية، باسم البابا يوحنا بولس الثاني، ليبدأ معه العهد الأكثر سياسة في تاريخ الفاتيكان منذ انهارت السلطة الزمنية لبابوات روما. حيث أحيطت وفاة يوحنا بولس الأول، وانتخاب يوحنا بولس الثاني، بعد تصاعد الدخان الأبيض، بملابسات كثيرة. فقد جرى الحديث عن وفاة غامضة ليوحنا بولس الأول.[١] ومع الحديث عن دور ليوحنا بولس الثاني في انهيار المعسكر الاشتراكي، أثار البعض تساؤلات عن البابا الأول غير الإيطالي وعن سبب اختياره من بولندا. وذهب البعض إلى حد الافتراض بأن هناك ترتيباً أمريكياً، أوروبياً غربياً في اختيار يوحنا بولس الثاني.[٢] وعزز من إطلاق هذه الافتراضات وثيقة نشرتها المجلة الكاثوليكية (ترنتيا جورني) بتاريخ ١٩٩٣/١٢/٢١، تفيد بأن الاستخبارات الإيطالية، لعبت دوراً في انتخاب البابا بولس السادس عام ١٩٦٣. وهناك من كتب: «أنه عندما توفي بولس السادس عام ١٩٧٨، وجد الكرادلة المجتمعون في الفاتيكان صعوبة في اختيار الخلف، ليستقر الرأي على انتخاب الكاردينال «لوتشياني». وخلافاً للباباوات أسلافه الذين كان معظمهم يتحدر من أصول ارستقراطية أو ثرية، كان البابا الجديد ابن عائلة فلاحية عمالية. وبعد مناقشات طالت أكثر من المعتاد، داخل أروقة الفاتيكان بستاره الحديدي، تم انتخاب أول بابا غير إيطالي منذ قرون، الكاردينال «كارول فويتيلا» وكثر الحديث عن أصول غامضة للبابا الجديد.[٣]

وعقب ملابسات اعتراف الفاتيكان بالعدو الصهيوني، هناك من قال في بولندا نفسها، ويوم انتخاب «فويتيلا» رئيساً للكنيسة الكاثوليكية، أنه لم يكن حتى كاثوليكياً، بل ربما كان يهودياً من أصل تشيكي.[٤] ولكن الإشاعة أكدت أنه لجأ إلى دير داخل الحدود البولندية، منذ أوائل الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩، وهناك تنصر وبدأ تعلم الكهنوت ثم أصبح كاهناً بعد أن وضعت الحرب أوزارها بعام ونيف؛ بينما قالت الكنيسة في حينه أن الاستخبارات وراء تلك الإشاعة لتحطيم سمعة البابا الجديد

---

(١) عفيف الرزاز، مقالة، في جريدة السفير - بيروت ١٩٩٢/٨/٦، وانظر: جريدة الخليج الإماراتية العدد ٧٥٤٢ تاريخ ٢٠٠٠/١/١٢م.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

داخل بولندا نفسها، لما عرف عنه من عداء شديد للشيوعية.[1]

يطالعنا «دارسي أوبراين» الأمريكي المحاضر في جامعة جوجنهايم الأمريكية، في كتابه (البابا الخفي Hidden Pope) ويقول: «أصدر بابا الفاتيكان، كارول فويتيلا - واجتيلا، الذي أصبح فيما بعد جون بول الثاني - يوحنا بولس الثاني، ذات يوم، مرسوماً بابوياً باعتبار «أوديت شتاين» قديسة تُقام لها الموالد، وتقدم لها النذور، وتنصب لها التماثيل في الكنائس، ويتوسل الناس ببركاتها. ويمضي «أوبراين» كان من الممكن أن يكون ذلك حدثاً عادياً في تاريخ الفاتيكان، لولا سمة واحدة اتسم بها مرسوم البابا، وهي أن «أوديت شتاين» ليست كاثوليكية، بل ليست مسيحية، وإنما هي يهودية أبا عن جد، ماتت عن بضع وخمسين عاماً في أحد معسكرات النازي أثناء الحرب العالمية الثانية. ويضيف «دارسي أوبراين» ليس من المهم هنا ذكر المآثر الجليلة التي استحقت «شتاين» من أجلها أن يحتسبها بابا الفاتيكان في عداد القديسين والقديسات، وإنما المهم أن هذه أول مرة في تاريخ المسيحية، يرسم فيها مرسوم القداسة شخصاً غير مسيحي. غير أن هذا المرسوم الاستثنائي جداً لم يكن سوى حلقة من سلسلة طويلة من تدابير محبوكة لتغيير العلاقة بين اليهود والكاثوليك من علاقة عداء تحكمها حقيقة أن اليهود تآمروا على "قتل المسيح"، إلى علاقة محبة واحترام متبادلين.

وفي كتابه «البابا الخفي» يقدم مؤلفه عرضاً مثيراً للعلاقة بين البابا يوحنا بولس الثاني، و«جيرزي كلوجر» اليهودي البولندي الذي أصبح أقرب أصدقاء البابا وأعظم الناس تأثيراً عليه. وكيف بدأت هذه العلاقة في صباهما ببلدة (وادويتسن) البولندية، ثم كيف فرقت بينهما الحرب، ليلتقيا مرة أخرى بعد ثلاثين عاماً ليكون هذا اللقاء فاتحة لتاريخ جديد، للكنيسة الكاثوليكية واليهود»[2]

ويروي (دارسي أوبراين)، أن بابا الفاتيكان، بإعلانه هذا، وبهذا اللوبي الصهيوني في عقر الدار الفاتيكاني، يود القول «إننا معشر المسيحيين واليهود نسير معاً على ملة واحدة، هي ملة إبراهيم». وحسب المؤلف أيضاً، ومنذ ذلك اليوم الذي أصبح فيه «جيرزي كلوجر»، باعتباره أول شخص يحظى بلقاء خاص مع البابا الجديد، أشهر شخصية في روما. ومع أنه فسر هذا التكريم بأنه لمسة وفاء من صديقه القديم، إلاّ أن الجالية (اللوبي) اليهودية في العاصمة الإيطالية كان لها تفسير آخر، ألا وهو أن هذا

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) دارسي أوبراين: البابا الخفي، عرض: جريدة البيان الإماراتية، العدد ٦٨١٦ (١٥ فبراير/شباط ١٩٩٩.)

الاستقبال الحار من جانب البابا لأسرة يهودية إنما هو تعبير عن موقف واضح من اليهود.. موقف لا يذكرون له مثيلاً، اللهم إلاّ واقعة حدثت أيام البابا الأسبق يوحنا أوجون الثالث والعشرين، عندما أوقف سيارته ذات يوم أمام الكنيس اليهودي على نهر التيبر بشارع لانجوتيجيري، ونزل منها ليحيي جمهور اليهود.

ويخلص «دارسي أوبراين»، بالقول: كان هناك بين اليهود من رأوا في تلك المشاهد مخاوف بغير أساس، وأنه من الممكن استغلال هذه العلاقة المتينة جداً بين البابا والمهندس اليهودي «جيرزي كلوجر» لخدمة «الدولة اليهودية». ومن بين هؤلاء «ماير منديس» المستشار الثقافي بالسفارة الإسرائيلية بروما، حيث أن «ليزلي» إبنة «كلوجر» تعمل مساعدة للمستشار الثقافي الإسرائيلي، المسؤول عن العلاقات مع الفاتيكان.(١)

من المتصور أن كل ذلك قد جاء وثيق الارتباط بالنشاط السياسي للبابا الأكثر سفراً في التاريخ، والأكثر إثارة للجدل، بل والأكثر مساهمة من موقع الشاهد والمشارك في تحولات جذرية كبيرة. وهو البابا الذي تعرض لمحاولة اغتيال عام ١٩٨١، كشفت عن تشابكات خطيرة في أجهزة الاستخبارات الأوروبية على اختلافها، وأن دينامية البابا الدينية لم تقتصر على الوضع في أوروبا الشرقية؛ فهو قوّض لاهوت التحرير، وقاد الفاتيكان نحو الاعتراف بالكيان الصهيوني.

١- الفاتيكان والصراع العربي - الصهيوني

إذا ما اعتبر موقف الفاتيكان من قضايا الصراع العربي - الصهيوني الأكثر تمثيلاً لتشابكات السياسة الفاتيكانية في العلاقات باليهود وبالعرب وبالإسلام وبسياسات الدول الكبرى، وبالتحولات التي حدثت بتداعياتها، فإنه ومنذ بدايات الصراع العربي - الصهيوني، وسياسة الفاتيكان بصدد الشرق الأوسط تسير في اتجاهين:

١) اتجاه يهدف إلى توطيد العلاقات بين الكنيسة الكاثوليكية والعالم العربي حتى يتسنى للفاتيكان حماية مصالح المسيحيين في الشرق أولاً، ثم بناء جبهة واحدة مع المسلمين ضد تيارات الكفر والإلحاد، أي الشيوعية.

٢) اتجاه يهدف إلى إيجاد صيغة للتفاهم بين المسيحية واليهودية، رغم العداء المستحكم بينهما، بسبب إيمان المسيحيين بثبوت جريمة اليهود في "صلب المسيح".(٢)

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

ويلاحظ «جورج عيراني» في صحيفة السفير - بيروت - ٢٠/١٠/١٩٨٦: «إنه منذ قيام الكيان الإسرائيلي، برز موقف تطوري تجاهه تميز بالمزج بين الأحكام المسبقة والبراغماتية السياسية. وعقب حرب ١٩٦٧، آثر الكرسي البابوي إجراء محادثات غير رسمية مع الحكومة الصهيونية[١] بهدف تحديد وضع المصالح الكاثوليكية في فلسطين».

تدفع ملاحظة «جورج عيراني»، إضافة إلى الحديث عن اتجاهين في سياسة الفاتيكان تجاه الصراع العربي - الصهيوني، إلى استبيان طبيعة العلاقة مع اليهود تقدم إضاءة مهمة في فهم التطورات اللاحقة.

في عام ١٥٨١، أصدر البابا «جريجوري الثالث عشر»، حكماً بإدانة اليهود[٢] نص على «إن خطيئة الشعب الذي رفض المسيح وعذبه تزداد جيلاً بعد جيل، وتحكم على كل فرد من أفراده بالعبودية الدائمة». وقد التزم الباباوات الذين تعاقبوا من بعده هذا الموقف. وفي الأول من مايو/أيار عام ١٨٩٧، عشية المؤتمر الصهيوني الأول، صدر عن الفاتيكان بيان جاء فيه: «لقد مرت ألف وثمانمائة وسبع وعشرون سنة على تحقيق نبوءة المسيح بأن القدس سوف تدمر. أما في ما يتعلق بإعادة بنائها بحيث تصبح مركزاً للدولة «الإسرائيلية» يعاد تكوينها، فيتحتم علينا أن نضيف أن ذلك يتناقض مع نبوءات المسيح نفسه، الذي أخبرنا مسبقاً بأن القدس سوف تدوسها العامة (جنيتل) حتى نهاية الزمن». (لوقا ٢١/٢٤)[٣]

ويضيف المصدر نفسه: وعندما توجه «هرتزل» برسالة إلى الفاتيكان طالباً دعمه، رد عليه البابا بيوس العاشر بالقول.. «لا أستطيع أبداً أن أتعاطف مع هذه الحركة الصهيونية، فنحن لا نستطيع أن نمنع اليهود من التوجه إلى القدس، ولكننا لا يمكننا ابداً أن نقر ذلك[٤] إنني بصفتي قيّماً على الكنيسة، لا أستطيع أن أجيبك في شكل آخر. لم يعترف اليهود بسيدنا، ولذلك لا نستطيع أن نعترف بالشعب اليهودي، وتالياً، فإذا جئتم إلى فلسطين وأقام شعبكم هناك، فإننا سنكون مستعدين كنائس ورهباناً لتعميدكم جميعاً». وأبلغ بيوس العاشر إلى هرتزل «رفضه إقامة وطن يهودي في

---

(١) جورج عيراني، الفاتيكان وكاثوليك أمريكا والشرق الأوسط - جريدة السفير - بيروت، ٢٠/١٠/١٩٨٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) محمد السماك، تاريخ العلاقة بين الفاتيكان و«الكيان الصهيوني» وصحيفة النهار - بيروت، ١٧/٦/١٩٩٤. وجريدة الخليج الإماراتية، الملحق ١٢/١/٢٠٠٠.

(٤) المصدر نفسه.

فلسطين لأنه يتناقض مع المعتقد الديني المسيحي«[١]

وفي عام ١٩١٧، صاغ البابا «بنديكيت الخامس عشر»، شعار (لا لسيادة اليهود على الأرض المقدسة)، وعارض الفاتيكان وعد بلفور منذ صدوره. واستقبل البابا البعثة العربية الفلسطينية التي زارت الفاتيكان في العام ١٩٢١، وتبنى رفض منح اليهود أي وضع مميز في فلسطين[٢] وذلك من خلال رسالة الكاردينال «جاسياري» (١٥ مايو/ايار ١٩٢٢). وتميز موقف الفاتيكان خلال هذه الفترة، بدعم المسيحيين العرب وتشجيعهم على المشاركة في النضال الوطني العربي ضد الحركة الصهيونية.[٣] وعكست الحركة الوطنية عام ١٩١٨ هذه المشاركة في أجلى معانيها، ثم تغلغلت المشاركة المسيحية الوطنية في الأحزاب السياسية العربية[٤] وأعطت زخماً قوياً للمؤتمرات الإسلامية – المسيحية.

وفي عام ١٩٤٦، أرسل الفاتيكان مبعوثاً إلى واشنطن ليبلغ الولايات المتحدة: «إن الكاثوليك في العالم لا يمكن إلاّ أن يجرحوا في كرامتهم الدينية، إذا سلمت فلسطين لليهود أو وضعت بصورة عملية تحت السيطرة اليهودية».[٥]

ويعود «جورج عيراني» في كتابه «الفاتيكان وكاثوليك أمريكا والشرق الأوسط» إلى القول: وقد تعرض الفاتيكان، كما الدول الكاثوليكية، لضغوط قوية لتغيير موقفه، وخاصة من الولايات المتحدة[٦] فبدأ بعمليات تنازل تدريجي. ففي حين لم يعترف بإسرائيل ورفض بدايةً قرار التقسيم، فإنه عاود للموافقة عليه وأخذ يحاول العمل على تنفيذ القرار (١٨١)، قرار تقسيم فلسطين، وبخاصة الجانب المتعلق بتدويل القدس، وكل ذلك بدون الإيحاء بأي تغيير في الموقف من الصهيونية بداية. فبعد الإعلان عن قيام إسرائيل كتبت صحيفة الفاتيكان «أوبرفاتوري رومانو»: إن الصهيونية ليست تجسيداً لاسرائيل كما وصفتها التوراة. إنها ظاهرة معاصرة، قامت على أساس الدول المعاصرة، وهي فلسفياً وسياسياً علمانية. إن الأراضي المقدسة والأماكن المقدسة،

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) محمد السماك وطارق متري، حول هجرة مسيحيي الشرق، بين التهويل والتهوين - وصحيفة النهار - بيروت، ١٩٩٨/٢/٧. وجريدة الخليج الإماراتية، ٢٠٠٠/١/١٢.

(٥) فايز سارة، الفاتيكان وإسرائيل، تبديل في الاستراتيجية - جريدة السفير - بيروت ١٩٩٢/٩/٢٢.

(٦) جورج عيراني، الفاتيكان وكاثوليك أمريكا والشرق الأوسط - جريدة السفير - بيروت ١٩٨٦/١٠/٢٠.

تشكل جزءاً أو قطعة من العالم المسيحي».[١]

ويرتقي الفاتيكان بعملياته التنازلية، ليس فقط فيما يتعلق بقرار تقسيم فلسطين وتدويل القدس، بل بتغيير جذري لموقفه من الصهيونية، وفق هدف معلن بالتدليل على التسامح الديني[٢] ما تؤكده الموسوعة الفلسطينية، وعفيف الرزاز:

«.. وتمثل التحدي المباشر للفاتيكان بقيام إسرائيل بتهجير مسيحي الأراضي المقدسة، فسعى الفاتيكان إلى تثبيتهم. وهو أسس عام ١٩٤٩ البعثه البابويه لمساعدة اللاجئين الفلسطينيين عبر تقديم السلع والخدمات التعليمية والثقافية والدينية والإنسانية مستبقاً بذلك الإعلان عن تشكيل «الأونروا». وقد تابع جهوده في هذا المضمار، خاصة اثناء زيارة البابا «بولس السادس» إلى القدس، التي مهدت للمساعدات التي قدمت من أجل إقامة جامعة بيت لحم. ولم يكن كل ذلك ليرضي واشنطن وإسرائيل، لذلك فإن نقطة الانعطاف المهمة في الموقف من اليهود والصهيونية، والتي انعكست على الموقف من الصراع العربي ـ الصهيوني، إنما ترتبط بالاتهامات التي وجهت إلى الكرسي الرسولي بتأييد النازية، على نحو ما سلفت الإشارة. كما ترتبط بنتائج المجمع المسكوني الثاني الذي انعقد بدعوة من البابا يوحنا الثالث والعشرين وفق هدف معلن بالتدليل على التسامح الديني، وإرادة التقريب والتفاهم مع جميع الأديان والطوائف».[٣]

فمنذ عام ١٩٦٠، كانت المنظمات الصهيونية تصعد ضغوطها لاستصدار وثيقة من الفاتيكان بتبرئة اليهود من دم المسيح. وقد صدرت بالفعل وثيقة فاتيكانية بعنوان «نوسترا إيتاني» تعلن أن موت السيد المسيح (لا يمكن أن يعزى عشوائياً إلى جميع الذين عاشوا في عهده أو إلى يهود اليوم). وكان البابا يوحنا الثالث والعشرين، قد ألغى في الصلاة الكاثوليكية مقطعاً يتحدث عن «اليهود الملعونين» كما ألغى من النصوص الدينية جرم «قتل الرب» على اعتبار أن الوثيقة المذكورة نصت أيضاً على ألاّ ينظر إلى اليهود كمنبوذين من الرب وملعونين كما جاء في الكتاب المقدس.[٤]

تنبغي الإشارة إلى أن المجمع الذي شهد إصدار هذه الوثيقة شهد صداماً بين الكنائس الكاثوليكية العربية والكنائس الغربية. فقد عارض المسيحيون العرب

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثالث وعفيف الرزاز ـ جريدة السفير ـ بيروت ١٩٩٢/٨/٦.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

الاعتراف الديني باليهودية، ومع ذلك فإن صدور الوثيقة بدون التحفظ العربي، أعفى الفاتيكان من الرفض المبدئي المبني على عقيدة دينية لقيام دولة «الكيان الصهيوني» إلى التعامل الواقع على معطيات سياسية. وهكذا قام بولس السادس بزيارة القدس للحج، رافضاً إعطاء صفة سياسية لزيارته، ولكن دلائل التحول في الموقف جاءت واضحة.(١)

وسعت الجماعات الصهيونية إلى استثمار سريع لوثيقة ١٩٦٥. ولكن عدوان حزيران ١٩٦٧، ووقوع القدس جميعها في القبضة اليهودية، أوجد متغيراً جديداً أمام الفاتيكان، وبدأت إشارة ظهور الوطنية الفلسطينية في خطب بولس السادس. وبحلول نهاية عام ١٩٧٥، أعلن البابا أن على الفلسطينيين و«الكيان» تبادل الاعتراف بحق كل منهما في تقرير المصير ووطن، وبدأت تظهر أيضاً تعبيرات «الشعب اليهودي» في تصريحاته؛ كما الإشارة إلى ما تحمّله «الشعب اليهودي» من مآس. وفي رسالته إلى رئيس البعثه البابويه عام ١٩٧٢، شدد البابا على أن شعب الأراضي المقدسة يتمتع بالحقوق نفسها في تقرير المصير لأي سكان محليين؛ كما شدد على أن الفلسطينيين، وبعضهم مسيحيون، وهذا سبب جوهري للاهتمام بهم. وأخيراً، إن الفلسطينيين شعب يحبه البابا، لأنهم كانوا وما زالوا يختبرون بشكل مأساوي، وهم يرمزون إلى نظريته حول تعزيز السلام بواسطة العدالة، كما كانت صحيفة الفاتيكان تنتقد على شكل متواتر سياسة الاستيطان الصهيونية. (٢)

يتضح أن البابا بولس السادس وضع القدس في أولوية اهتماماته، واعتبر أن وضعها هو الأساس في العلاقة بين الفاتيكان و«الكيان الصهيوني» وحدد في خطاب له عام ١٩٦٧، ثلاث نقاط أساسية:(٣)

ا ـ حماية الأماكن المقدسة والطابع التاريخي لمدينة القدس.

ب ـ الطبيعة الدولية للقانون الذي يجب أن يطبق على الأماكن المقدسة والقدس.

ج ـ ضمانات خاصة بالحقوق المدنية والدينية للطوائف في فلسطين.

يلاحظ «جورج عيراني» أن البابا في هذا النص تخلى عن دعوته إلى تدويل القدس بالحديث عن الدعوة لنظام خاص يتمتع بضمانات دولية، وهي صياغه سوف تعتمد لوقت طويل لدى تناول الفاتيكان موضوع القدس. أما بشأن العلاقات مع «الكيان

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) جورج عيراني، الفاتيكان وكاثوليك أمريكا والشرق الأوسط ـ جريدة السفير ـ بيروت ٢٠/١٠/١٩٨٦.

(٣) المصدر نفسه.

الصهيوني». فقد أكد بولس السادس أنه لا يستطيع المشاركة في أي اتفاق مع بلد لا يعترف به الفاتيكان، ولا يستطيع الاعتراف به طالما استمرت حالة الحرب في الشرق الأوسط قائمة.(١)

وحسب الإيضاحات أعلاه، فإن فهم الفاتيكان لمسألة العلاقات يبنى على النقاط الآتية:

١) إن الكرسي البابوي يتجنب إقامة علاقات دبلوماسية مع دول تفتقر إلى حدود محددة ومعترف بها.

٢) إحجام الكرسي الرسولي عن الاعتراف بدول ذات أوضاع متغيرة ومثيرة للجدل، وهي حالة «الكيان الصهيوني» اليوم.

٣) الخسارة الجوهرية، ومنذ القرون الوسطى لسلطة البابا الزمنية، وهو ما يستدعي أن يأخذ البابا في الحسبان النظرة الشاملة، وبلا شك، وجهات الكنائس المسيحية في البلدان العربية (المارونية ـ القبطية).

٤) الكرسي البابوي كما هو في علاقاته الدبلوماسية مع الدول الأخرى، يطلب ضمانات تتصل بانتظام الوجود والتعليم الكاثوليكي وهذا أمر يثير قلق اليهود المتزمتين.(٢)

أقام الفاتيكان موقفه من العلاقات على هذه النقاط. وتركز «الموسوعة الفلسطينية» على الضغوط الهائلة التي تعرض لها الفاتيكان من الولايات المتحدة (إدارة وكنيسة بروتستانية وحتى كهنة كاثوليك) على مدى السنوات التي تولى فيها بولس السادس السدة البابوية؛ وهذه الضغوط لن تظهر نتائجها إلاّ مع تولي «يوحنا بولس الثاني» السدة البابوية، وهو الأمر الذي أثار ويثير تساؤلات كثيرة. فقد باتت العلاقات مع اليهود ثم الكيان الصهيوني تتسارع منذ عام ١٩٨١، وصولاً إلى الاعتراف عام ١٩٩٤ والخطوات التي تلته. أما كيف وظفت المنظمات اليهودية والصهيونية تلك الضغوط، فيلاحظ:(٣)

في ٩ فبراير/شباط ١٩٨١ صافح البابا حاخاماً يهودياً (حاخام كنيس روما) ما اعتبرته الأوساط الصهيونية واليهودية حدثاً تاريخياً وسعت إلى جعل المصافحة

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) إنعام رعد، مناقشة نقدية للوثيقة الفاتيكانية، المسيح ويولس ـ لا قيصر ولا هرتزل ـ وصحيفة النهار ـ بيروت ١٤/١/١٩٩٤

عملية متتابعة يكون لها دوماً ما يليها في العلاقات بين الكنيسة الكاثوليكية واليهود. ورأت المنظمات اليهودية والصهيونية ضرورة توظيف عمليات ضغط متزايدة في هذا المضمار؛ فكان يجري على الدوام التذكير بموقف الفاتيكان من النازية؛ وأثمرت الضغوط عن صدور وثيقة أخرى عام ١٩٨٥ تحدثت للمرة الأولى عن «إسرائيل» مازجة بين اليهود كأتباع ديانة و«وإسرائيل» ككيان، معتبرة أن اليهود تميزوا بأمرين:

الأول : تمسكهم بعبادة الله...

الثاني : حبهم لما يسمى «أرض الأجداد» (أرض فلسطين).

من هذا التميز الفاتيكاني، رأت المنظمات الصهيونية واليهودية أن حملتها بدأت تعطي ثمارها؛ فاستمرت في حملات الابتزاز معتبرة أن البيان (الوثيقة ١٩٨٥) لم يقم صلة زمنية بين الشعب اليهودي وبين «الكيان الصهيوني» وأنه رغم دعوته المسيحيين إلى تفهم الارتباط الديني لليهود «بدولة الكيان» فإنه أشار إلى أن وجود «دولة الكيان» وخياراتها السياسية يجب النظر إليها ليس بنظرة دينية بل استناداً إلى المبادئ المشتركة للقانون الدولي.(١)

بدا أن الفاتيكان يتعاطى مع الضغوط بجدية؛ والزيارة التي قام بها «يوحنا بولس الثاني» للحاخام الأكبر في روما (١٩٨٦) لم تخفف من الغلواء اليهودية؛ بل جرى، ومن خلال سياسة مرسومة، تضخيم كل موقف يصدر عن البابا، في سياق حملة ابتزاز مبرمجة، لم يكن الكرسي البابوي في تلك السياسة المرسومة وكذلك في حملة الابتزاز المبرمجة التي تلقى تجاوباً من الكرسي البابوي، بعيداً عنها.(٢)

ففي ١٩٨٩/٨/٩، قال البابا: «إن الخالق وعد عبر أقواله النبيّين (أرميا وحزقيال) بتحالف جديد مع شعبه، في المسيح، نتيجة كفر «اسرائيل» بإلاهها». فثارت ثائرة اليهود، حتى ذهبت الدبلوماسية الفاتيكانية إلى الاعتذار. وتكرر هذا عندما قارن البابا بين الإجهاض والنازية، وعندما منح كورت فالدهايم (بتهمة اليهود له بأنه نازي متخفّ) وساماً رفيعاً. وقد وجد الفاتيكان نفسه مضطراً بشكل دائم إلى رد الاتهامات بأنه ساعد النازيين في الحرب العالمية الثانية، إلى حد دفع بالمتحدث باسمه «جواكم نافرو» إلى القول: «إن الفاتيكان ساعد اليهود ومنظماتهم أثناء الحرب مثل الوكالة اليهودية والمؤتمر اليهودي الأمريكي».(٣)

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه وجريدة الخليج الإماراتية ٢٠٠٠/١/١٢.

واقع الحال أن لقاءات البابا مع الزعامات اليهودية في البلدان التي يزورها أصبحت اعتيادية؛ وأخذ يضمّن أحاديثه تأكيد اعتراف الكاثوليك بـ"الارتباط" التقليدي المزعوم بين اليهود وأرض فلسطين. لكنه ثابر على صياغاته السابقة حول القدس والعلاقات مع «العدو الصهيوني» وتأييد (السلام) منذ اتفاقات كامب ديفيد.

ومقابل العلاقات المتصاعدة مع الزعامات اليهودية، كان تعيين الفاتيكان للعربي الفلسطيني «ميشال صباح ـ بطريركاً للقدس» محاولة لإظهار التوازن. فالبطريرك (صباح) هو أول عربي يعين بطريركاً للقدس منذ عام ١٠٩٩.(١)

وظل الموقف من القدس أولوية لدى الفاتيكان الذي أخذ ينحو باتجاه صياغة تقول باتخاذ إجراءات مناسبة لضمان طابع القدس، بوصفها ميراثاً مقدساً تشترك فيه ديانات التوحيد الثلاث بواسطة إجراءات مناسبة، وأن يكفل ذلك ضمان دولي أو قانون مناسب، بما يتضمنه ذلك من وضع اليهود على قدم المساواة مع المسيحيين والمسلمين.(٢)

حدث هذا التحول عام ١٩٨٧ الذي شهد انفجار الانتفاضة الفلسطينية. فأظهر البابا تعاطفاً مع الشعب الفلسطيني، ولكنه ضمّن تصريحاته ما يشي بعدم انحيازه من وجهة فاتيكانية؛ فهو عندما تحدّث عن أن سكان الضفة الغربية وقطاع غزة لا يزالون من دون وطن ودولة يشعرون فيها أنهم مواطنون لهم حقوق كاملة، حذر الفلسطينيين من الاستجابة لإغراء العنف الأعمى، وقال: «إن الإسرائيليين يتنازعهم القلق على أمنهم». وفي تصريحات أخرى قال: «إنها صرخات شعب بأكمله (الفلسطينيون) يعاني اليوم أشد المعاناة، ويشعر أنه مستضعف بعد عشرات السنين من النزاع مع شعب آخر تربطه بنفس الأرض وشائج التاريخ والإيمان»(٣)

تظهر هذه التصريحات حجم ومدى التبدّل العميق، الذي ظهرت نتائجه العملية سريعاً. ففي ١٩٩١/١١/٩ نشرت الصحف إعلان الفاتيكان، عقب لقاء بين الرئيس الأمريكي جورج بوش والبابا، بأنه يقيّم الآن مسألة إقامة علاقات دبلوماسية مع «الكيان الإسرائيلي» في ضوء انعقاد مؤتمر السلام في مدريد.(٤)

---

(١) المصدر نفسه وجريدة الخليج الإماراتية ٢٠٠٠/١/١٢.

(٢) المصدر نفسه وجريدة الخليج الإماراتية ٢٠٠٠/١/١٢.

(٣) جورج عيراني، الفاتيكان وكاثوليك أمريكا والشرق الأوسط ـ وجريدة السفير ـ بيروت ١٩٨٦/١٠/٢٠. وجريدة الخليج الإماراتية ٢٠٠٠/١/١٢، الملحق.

(٤) المصدر نفسه.

كان هذا الإعلان ضربة البداية في سلسلة من التطورات التي أوصلت إلى إقامة علاقات دبلوماسية بين الفاتيكان والكيان الصهيوني. وثمة قراءات متعددة لهذه التطورات؛ فهناك من يرى أنها «التصرف الذي كان مطلوباً من الفاتيكان لصالح الولايات المتحدة مقابل ما قامت به الأخيرة في بولونيا؛ ويرى آخرون إنها نتيجة لتدهور الموقف العربي». وأورد البعض أسباباً منها أن الفاتيكان لم يعد في موقفه السياسي من «الكيان الصهيوني» أسير معتقداته الدينية، خاصة وأن البابا قال أمام زعماء يهود أمريكيين: «لا توجد أسباب لاهوتية في العقيدة المسيحية، تحظر قيام علاقات بين الفاتيكان وإسرائيل»(١)، إذ بدا مفهوماً لدى كثيرين، أنه يجري التعلل بالمتغيرات، وبالمحادثات العربية – «الإسرائيلية»؛ بيد أن هذا التفهم يسقط دفعة واحدة شروط الفاتيكان التقليدية لإقامة العلاقات مع «الكيان الصهيوني»، مما يجعل التعلل غير مقبول من الفاتيكان بالذات. وثمة إلى ذلك ملاحظة ثانية تتعلق بالضغوط الأمريكية على الفاتيكان. فقد قطعت الولايات المتحدة علاقاتها بالفاتيكان عام ١٩٤٥ ولم تعدها إلاّ عام ١٩٨٤ بعد لقاءات بين البابا والرئيس ريغان، اللذين توافقا على موضوعات عديدة تخص أوروبا الشرقية أساساً. غير أن التطورات اللاحقة بشأن الموقف من الصراع العربي ـ الصهيوني، تؤكد أن الموضوع كان على بساط البحث. فالفترة الفاصلة بين إعادة العلاقات بين واشنطن وروما (الفاتيكان)، ووثيقة ١٩٨٥، لا تتعدى الأشهر.(٢)

إن الضغوط الأمريكية واقعة قائمة. فهناك، وكما يقول يوسف الحسن، «ضغوطات تمارسها الكنائس الأمريكية، في معظمها أقرب إلى الصهيونية منها إلى المسيحية». وقد حدث توافق كبير بين هذه الكنائس والرئيس ريغان. ومن المعروف أن هناك كنائس أمريكية تتبنى طروحات تتجاوز الصهيونية واليهود في عدائها للعرب والمسلمين. وقد استطاعت هذه الكنائس أن تجيّش دعماً كبيراً جداً للكيان الصهيوني. وهي، وإن كانت في غالبيتها بروتستانتية وإنجيلية، فقد جذبت بعض الكاثوليك على غرار ما حدث في تشكيل «منظمة الكونجرس المسيحي الوطني» وهي من المنظمات الصهيونية المسيحية تم انشاؤها عام ١٩٨٠ بهدف توحيد المسيحيين من الطوائف والمنظمات كافة من أجل الوطن القومي اليهودي؛ وشارك في حفل إنشائها ممثلون عن المؤتمر الوطني للرهبان الكاثوليك والمجلس الوطني للكنائس».(٣)

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) يوسف الحسن، البعد الديني في السياسة الأمريكية، ص ١٤٩.

ويضيف الحسن: «كما أن القس الكاثوليكي الأصولي ديفيد لويس أسس المنظمة المسماة (مسيحيون متحدون من أجل إسرائيل). فالكنائس والمنظمات تضغط على الإدارة، والإدارة تضغط على الفاتيكان الذي ربما أراد كسب الطرفين بترضية كبيرة على غرار العلاقات مع «الكيان الصهيوني»، متجاهلاً الخطورة التي تمثلها تلك المنظمات المسيحية على المسيحية بالذات، بجعلها أقرب إلى اليهودية منها إلى تعاليم السيد المسيح. لكن ما يجب أن نلفت الانتباه إليه أيضاً أن بعض تصريحات البابا اقتربت من تغيير مفاهيم عقيدية راسخة في الديانة المسيحية، إذ أنه اعتبر لدى استقباله «حاخام إسرائيل الأكبر - لاو» أن العلاقات بين الدين اليهودي والكاثوليكية هي علاقات لم توجد مع أي دين آخر، متوجاً بذلك سلسلة من التصريحات التي بدأت بوثيقة ١٩٨٥،[١] التي أعقبت تبرئة اليهود من دم المسيح، فيما جريمة الصلب من الثوابت العقيدية في الديانة المسيحية.

بالاستناد إلى كل هذه التطورات، وبعد أشهر قليلة من توقيع اتفاق أوسلو بين منظمة التحرير الفلسطينية و«الكيان الصهيوني» جرى توقيع اتفاق اعتراف متبادل بين «الكيان الصهيوني» والفاتيكان. ولم يتطرق الاتفاق إلى القدس. وشمل أساساً قضايا ثنائية مثل: التعاون لمكافحة العداء للسامية والعنصرية، والتعصب الديني، وتعهد من الفاتيكان بالبقاء بمنأى عن جميع النزاعات الزمنية؛ ويسري هذا المبدأ خصوصاً على النزاعات في شأن الأراضي والحدود.

اعتبر اليهود والصهاينة هذا الاتفاق «نصراً للشعب اليهودي والكيان الصهيوني» فيما اعتبر الفاتيكان أن الاتفاق «سيمكّن من المساهمة في التأثير لاحقاً على عملية السلام في الشرق الأوسط». وفي ١٩٩٤/٦/١٥ جرى التوقيع على اتفاق إقامة العلاقات الدبلوماسية الكاملة وتبادل الممثلين بين الجانبين[٢]. وبعد هذا الاتفاق برزت ثلاثة أمور في غاية الأهمية:

١- استمر الجدال قائماً حول القدس. فالفاتيكان كرر دعواته إلى ضمانات دولية للمدينة المقدسة. وبقي الصهاينة مصرين على رفضهم ذلك؛ وكرروا إعلان تمسكهم بالقدس عاصمة لهم موحدة تحت السيادة الصهيونية. وحتى «شمعون بيرين» تهكم على البابا قائلاً: ماذا تعني كلمة دولية؟ إن «إسرائيل» ستضمن الطبيعة التعددية

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) جورج عيراني، الفاتيكان وكاثوليك أمريكا - وجريدة السفير - بيروت / وإنعام رعد، مناقشة نقدية للوثيقة الفاتيكانية..

للقدس. وكرر هذا الموقف «رابين»، ثم «نتنياهو» الذي استقبله البابا، وجدد تأكيده «باراك». بيد أنه بالمقابل، برزت صياغة فاتيكانية للموقف من القدس[١] تقول: «لا يتمتع الفاتيكان بأي صلاحية فيما يتعلق بالسيادة على أراضي القدس، ولكن على الصعيد الديني يريد ضمانات دولية للأماكن المقدسة»، وهي صياغة أضعف من كل مواقفه السابقة، ويرد عليها الصهاينة بأنهم يضمنون حرية العبادة.

٢- في ١٦/١٢/١٩٩٤ قرر الفاتيكان إحياء ذكرى ما يسمى «محرقة اليهود»[٢] في حاضرة الفاتيكان بحضور البابا وكبير حاخامي روما ووفد من الناجين من المعسكرات النازية. وردد البابا تصريحات وكأنه المسؤول المباشر عما يُزعم حول «المحرقة». ولكن مع ذلك تصاعد الابتزاز اليهودي الصهيوني. لقد صرح البابا أن اليهود الذين تشتتوا بين دول العالم لألفي عام، قد قرروا العودة إلى أرض أجدادهم وهذا حقهم ..![٣] وقد رد عليه اليهود بأن هناك أموالاً لليهود (ضحايا النازية) استولى عليها الفاتيكان. وقد جرى تفجير هذه القضية عقب نجاح الصهاينة في عملية ابتزاز كبيرة للمصارف السويسرية، بمعنى أن حملات الابتزاز مستمرة.[٤]

٣- لم يلتفت الفاتيكان بأي قدر من الاهتمام للاحتجاجات العربية حول علاقاته المستجدة مع «الكيان الصهيوني». وقد وجه بطاركة عرب فلسطين (ميشال صباح- لطفي لحام- سمير قفعيتي) والمفتي سعد الدين العلمي رسالة إلى البابا توضح مخاطر العلاقات على وضع القدس، كما احتج ساسة عرب كثر، ولكن بدون أن يحدثوا التأثير المطلوب.

وفي العام ١٩٩٤، أعلن عن زيارة وفد من منظمة التحرير الفلسطينية إلى الفاتيكان، ثم عن علاقة رسمية معه ليس لها طبيعة دبلوماسية. ويبدو أن البعض اقتنع بهذه الترضية، وبما يحاول الفاتيكان إظهاره من ميل إلى التوازن، بالحث على السلام. وبسبب هذه القناعة، وقع الفاتيكان مع «الكيان الصهيوني» اتفاقاً عام ١٩٩٧ يمنح الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في الأراضي المقدسة وضعاً قانونياً؛ ونص الاتفاق على أنه يسري حيث يطبق القانون..الصهيوني، بمعنى أنه يشمل شرقي القدس.[٥]

---

(١) المصدر نفسه، وانظر: يوسف الحسن، البعد الديني في السياسة الأمريكية.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) جورج عيراني، الفاتيكان وكاثوليك أمريكا / وإنعام رعد، مناقشة نقدية للوثيقة الفاتيكانية..

(٤) المصدر نفسه.

(٥) إنعام رعد، مناقشة نقدية للوثيقة الفاتيكانية، المسيح وبولس - لا قيصر ولا هرتزل - جريدة الخليج الإماراتية ١٢/١/٢٠٠٠، الملحق.

أسقط هذا الاتفاق، بضربة واحدة، كل التحفظات السابقة التي كان الفاتيكان يتذرع بها، ومنطوق شروطه التقليدية، حتى بمقياس الاستقرار والسلام والعدالة والتوازن الذي طالما تحدث عنه. وهو بدا في الآونة الأخيرة وكأنه يريد إظهار «الكيان الصهيوني» كحام للمسيحيين، على غرار موقفه المرتبط بما شهدته مدينة الناصرة الفلسطينية من أحداث (في نيسان ١٩٩٩) مرتبطة بخلاف على قطعة أرض تابعة للوقف الإسلامي بجانب كنيسة البشارة بين لجنة الوقف وبلدية الناصرة.

ينبغي الإشارة هنا إلى أن فلسطين لم تشهد بالمطلق أي نوع من المشكلات التي يمكن وصفها بأنها ذات طابع طائفي. ويؤكد بطاركة وأكاديميون فلسطينيون أن الاحتلال الصهيوني هو المسؤول الأول والمباشر والوحيد عما تعرض ويتعرض له المسيحيون من ضغوط، وخاصة في القدس، أدت إلى تناقص كبير في أعدادهم (من ٥٠ ألفاً إلى خمسة آلاف فقط) في القدس الآن وفي غير القدس، كما أن الاحتلال ينفذ اعتداءات على الكنائس والمساجد معاً. وقد أكد هؤلاء أيضاً وفي تصريحات متكررة أن الاحتلال هو المسؤول عن تفاقم الخلاف في الناصرة وعمل على تغذية فتنة طائفية، تفجّرت وعلت على المنابر والفضائيات. ولكن الفاتيكان لم يلقِ بالاً إلى كل التوضيحات التي صدرت، وتوجه إلى حكومة الكيان طالباً وقف بناء المسجد في الناصرة، أو أن يتخذ الإجراءات التي يراها؛ إلغاء زيارة البابا المقررة إلى الأراضي المقدسة، ثم عاد الفاتيكان للتراجع عن ذلك. يمكن للإنسان العادي اعتبار هذا الموقف نموذجاً لسياسات الفاتيكان الراهنة، عقب إقامة علاقاته الدبلوماسية مع «الكيان الصهيوني» والتنازل عن مجمل مواقفه التقليدية بشأن القدس.

إن هذا الموقف، النموذج، لسياسات التشابك الفاتيكانية ليس بالجديد إذا ما قورن بأهداف تلك الحملات الاستعمارية البعيدة كل البعد عن مسألة الدين ونشر المسيحية حين أضفت الكنيسة على الصراع الديني والحروب في داخل أوروبا الصفة المقدسة. وانعكس الخلاف بين الكنائس صراعاً مريراً، فاضطهد الكثالكة، حيث كانت السلطة للبروتستانت، واضطهد الأخيرون من قبل الكاثوليك، فكانت المعاهدات التي أبرمها الفاتيكان مع الدول الأوروبية للحفاظ على أوضاع الكاثوليك والخلاص من تلك الحروب التي سعّرت الكنيسة لهيبها بهدف تكريس سلطتها وسلطانها.(١)

وعودة للموقف، النموذج، فإن الكيان الصهيوني ليس الجهة المناسبة للتوجه إليه

---

(١) المصدر نفسه.

فيما يتعلق بموضوع الناصرة الذي كان يمكن حله في إطار حالة التعايش الراسخة والتاريخية بين أبناء الشعب الواحد، في مدينة لطالما تعانق فيها المسجد والكنيسة منذ قرون. ولعل هذا الشكل من التدخل لا يفعل شيئاً سوى أنه يعقّد مشكلة هي أقرب إلى الحل بدونه.

٢ ـ موقف الفاتيكان من لبنان

ترتبط مكونات الموقف من لبنان بالموقف من قضايا الصراع العربي ـ الصهيوني. وقد منح الفاتيكان لبنان وبسبب الحرب الأهلية التي شهدها، اهتماماً خاصاً شكل مرة أخرى نموذجاً للإرث الطويل من النشاط والتشابك السياسيين للكرسي البابوي.

وتقدم «السيرة التاريخية للدبلوماسية الفاتيكانية» (مرجع سابق) و«جورج عيراني»، إيجازاً مكثفاً جداً لموقف الفاتيكان من لبنان:

«إن البابا يسعى منذ عدة سنوات إلى تقوية المسيحية الشرقية، وخاصة الكاثوليكية منها، وشد أزرها وتحسين ظروف تعايشها في المجتمعات التي تتواجد فيها. وقد ظهر ذلك جلياً بما قام به الفاتيكان في لبنان ضد «الجنرال ميشال عون» وتأييد الكرسي البابوي للطائف».(١)

هذا الإيجاز، يختصر جهوداً دبلوماسية كبيرة قام بها الفاتيكان في لبنان، ويسعى نحو الإيحاء بالتسليم بأن ما يطرحه دقيق في الوقت نفسه، مغفلاً (مثلاً) استياء الحكومة اللبنانية من أن الفاتيكان لم يصل إلى حد التأييد المعلن لاتفاق الطائف، وأن هذا الاتفاق قد وضعه في موقف يتعذر الدفاع عنه. فمن جهة كان يريد التعبير عن تأييده فيما كان للشقاقات الحزبية بين هذه الأطراف في لبنان بعض التأثير على صانعي السياسة في روما.

لقد عبر الفاتيكان عن تأييده لاتفاق الطائف على لسان البابا الذي افتتح في ١٩٨٩/١٠/٤ يوم صلاة من أجل لبنان بالكلمات الآتية: «إن الحوار الجدّي الذي يهدف إلى السلام والتفاهم الوطني، يتطلب احتراماً متبادلاً، يصل مداه إلى التسامح والصفح وهذا يعني أن غوايات العجرفة والغطرسة وشهوة السيطرة والتعصب يجب أن تقمع».(٢)

فإذا جمعنا هذه الكلمات، إلى الإشارة إلى موقف الحكومة اللبنانية من شكل تأييد

---

(١) جورج عيراني، الفاتيكان وكاثوليك أمريكا والشرق الأوسط ـ جريدة السفير ـ بيروت ١٩٩٢/٩/٢٢.
(٢) المصدر نفسه.

الفاتيكان للطائف، تكونت ملامح صورة مضطربة وزئبقية في معالجة الدبلوماسية الفاتيكانية لمواقفها تجاه ما شهده لبنان.

يلاحظ (عيراني) أنه منذ بداية الحرب اللبنانية عام ١٩٧٥، إتبع الفاتيكان سياسة تستند إلى المحافظة على سلامة أراضي لبنان وعلى الصيغة اللبنانية للتعايش مع التعديلات المطلوبة. وأعرب البابوان «بولس السادس» و«يوحنا بولس الثاني» في خطاباتهما وبياناتهما عن دعمها الكامل للسلطات الشرعية ممثلة برئيس الجمهورية.

وواقع الأمر أن هذه هي الخطوة العامة للسياسة الفاتيكانية تجاه لبنان والتي مرت بثلاثة أطوار رئيسية: ففي السنوات الخمس الأولى للحرب الأهلية تبع الفاتيكان سياسة التدخل المباشر للتوسع في النزاع اللبناني. ومنذ أن بدا واضحاً ان الشقاقات اللبنانية والمارونية الداخلية خرجت عن نطاق السيطرة، فضل الفاتيكان العمل بطريقة غير مباشرة في توفير مساعدات إنسانية.

شهدت هذه المرحلة محاولة «توحيد العائلة المارونية». ويمكن الافتراض أن هذه المحاولة انتقلت إلى المرحلة الثالثة التي عاد فيها الفاتيكان للعمل المباشر من خلال الإرشاد البابوي وزيارة البابا إلى لبنان، حيث واظب الفاتيكان خلال هذه المرحلة على إيفاد بعثات بابوية مثل البعثه التي ترأسها الكاردينال «باولو برتولي» عام ١٩٧٥ التي تركزت جهودها على إقامة حوار بين الأطراف المتنازعة من أجل العثور على صيغة لإحياء نموذج التعايش المسيحي ـ الإسلامي في لبنان، مؤكدة رفضها تقسيم لبنان؛ وهو ما أثار حفيظة أطراف من المارونية المسيحية وتسبب في مشكلة ما لبثت أن تفاقمت بين هذه الأطراف والفاتيكان. وأوفد الفاتيكان بعثه ثانية برئاسة المونسينيور «ماريو بريني»، سكرتير تجمع الكنائس الشرقية، في مهمة رعوية إنسانية.

وبعد اعتلاء البابا «يوحنا بولس الثاني» سدة الفاتيكان، أوفد بعثة ثالثة (١٩٧٨) برئاسة الكاردينال «باولو برتيني» حددت أهدافها على النحو التالي:

١) توحيد الطائفة المارونية والتوفيق بين أطرافها.
٢) محاولة العثور على قاسم مشترك بين جميع الأحزاب اللبنانية لإحياء صيغة التعايش بين المسيحيين والمسلمين.
٣) خلق موقف لبناني موحد من خطر توطين الفلسطينيين في لبنان.

وبغية إرضاء ما كان يُعرف بأطراف «الجبهة اللبنانية» آنذاك، أعلن «برتيني»

عن تأييده «فكرة حل دولي في لبنان»[1]. وخلقت هذه الإشارة السياسية مشكلة أمام النشاط السياسي للفاتيكان، الذي بدا نصيراً لتوجه طرف من أطراف الأزمة. ومع ذلك فقد أرسل الفاتيكان بعثة أخرى عام ١٩٨٠ عادت لتؤكد موقفه القديم. وفي عام ١٩٨٢ أدان الفاتيكان الغزو الصهيوني للبنان، وتجددت مشكلاته مع أطراف المارونية السياسية المتقاتلة والمنشقة على بعضها؛ فعاد عام ١٩٨٦ للتدخل السياسي المباشر في محاولة لتعديل صيغة الأزمة في لبنان. إلاّ أن محاولته لم تنجح، ووقف مرتبكاً إذ توالت الانشقاقات المارونية، ومنها حادثة الاعتداء على البطريرك «صفير» من قِبل أفراد يتبعون الجنرال عون.

شكل مؤتمر الطائف الذي عقد برعاية عربية سورية – سعودية انعطافاً حاسماً وضع حداً للحرب الأهلية في لبنان. وقد أعلن الفاتيكان موقفه السالف ذكره من الاتفاق، وأظهر اهتماماً مباشراً بمعاودة التأكيد على الحوار وصيغة التعايش.

وفي هذه الأجواء، أجواء السلم والاستقرار، توّج الفاتيكان اهتمامه بلبنان بزيارة البابا يوحنا بولس الثاني في ١٠/٥/١٩٩٧، وبإرشاد بابوي مطول خاص بلبنان، قويل بحفاوة كبيرة. لكن الإرشاد الرسولي تعرض لعدد من الانتقادات، وحتى من مطارنة اعتبروا أن على الفاتيكان ألا يحكم من بعيد، بل عليه أن يترك الموقف المباشر للمسؤولين المعنيين؛ والإشارة هنا إلى تضمن الإرشاد مواقف سياسية مباشرة غير صالحة لاتخاذ قرار بشأن هذه المواقف، كما يرى المطران «جريجور حداد».[2]

نخلص إلى استنتاج في سياق التصريحين، الموقفين، لبابا الفاتيكان: أثناء لقاء له مع الرئيس الأمريكي السابق «جورج بوش» عام ١٩٨٩، حيث قال البابا: «إن المبادئ الأخلاقية والقيم الفكرية التي تتمتع بها الولايات المتحدة قادرة على الرد على تحديات العصر والعمل على ضمان احترام الانسان خصوصاً إذا كان ضعيفاً».[3]

وفي نيومكسيكو، وقع البابا في مطلع ١٩٩٩ إعلاناً يحدد أهداف الكنيسة في الأمريكتين خلال الألفية المقبلة لمواجهة شرور الاستغلال الرأسمالي والفساد وتجارة المخدرات والموت، وتحدث عن الحقوق المشروعة ليهود المكسيك، السكان الأصليين.[4]

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) جورج عيراني، ماهم المسيحية الحق أن يكون المسيحيون أقلية أو أكثرية - النهار - بيروت ١٧/١/١٩٩٨.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

تفصل بين التصريحين عشر سنوات، وهذا ليس مهماً؛ وثمة سنة هي في غاية الأهمية. فالحديث لبوش كان عام ١٩٨٩، حينما كانت هناك اعتمادية متبادلة بين واشنطن والفاتيكان في السياسة الشرقية. وعندما انتهت هذه السياسة بانهيار الكتله الشرقية، عاد البابا ليركز على انتقاد التوحش الرأسمالي وفساد النظام القائم على الاستغلال. ولعل ما حدث في زيارته للمكسيك كان تتويجاً لهذه العودة، ما يقتضي الالتفات إلى التداخل في دوافع الفاتيكان. فالبابا تحدث بالفعل كثيراً عن الفقراء، وانتقد في زيارته إلى المكسيك الجور الرأسمالي؛ ولكنه كان يرفض بشدة مشاركة رهبان كاثوليك في حركات تحرر وطنية، وحركات ماركسية، وهو يعتبر أن طريقته أكثر نفعاً في صالح الفقراء. وفي عام ١٩٩٢، عقد في الدومينيك أول مؤتمر كنسي لأمريكا اللاتينية وكان ذلك مناسبة للبابا للانتهاء من نظرية التحرر التي اعتبرها تفسيراً خاطئاً لمبادئ الإنجيل.(١)

وفي عهد البابا يوحنا بولس الثاني، أبدى الفاتيكان اهتماماً كبيراً بأفريقيا، حيث يشكل الكاثوليك حوالي ١٢٪ من سكانها، وواجه تياراً إقليمياً راغباً في تأسيس مجتمع خاص مرتكز على الثقافات الإفريقية المحلية. فقاوم البابا هذا التوجه وقام برحلات متعددة إلى أفريقيا، ركز فيها على:

أ- رفض التمييز العنصري.

ب- رفض انتهاكات حقوق الانسان.

ج- تحسين العلاقات بين المسلمين والمسيحيين.

وأشار إلى أن دور الكنيسة والحبر الأعظم والأساقفة هو تذكير زعماء الدول الإسلامية بأن الشريعة الإسلامية يمكن تطبيقها على المسلمين فقط.

وفي زيارته إلى السودان، وجه انتقادات إلى الحكومة بسبب الحرب في الجنوب وتحدث عما سمّاه «معاناة السكان الكاثوليك» دون الإشارة إلى دور الاتجاهات الانفصالية في تسعير تلك الحرب.

وأثناء زيارته لبنجلاديش ١٩٨٦ (فيها يعيش ٨٠ مليون انسان منهم ١٨٠ ألفاً من الكاثوليك) أشار إلى أن: «الحوار بين الديانتين، الإسلامية والمسيحية، بات ضرورياً أكثر من أي وقت مضى. إن الكنيسة الكاثوليكية تسعى للتعاون مع ذوي النوايا الطيبة من الأديان كافة. فلدينا الكثير من الثروات الروحية المشتركة التي

(١) المصدر نفسه، وانظر: جريدة الخليج الإماراتية ٢٠٠٠/١/١٢، في الأصل السفير والنهار- بيروت، ١٩٨٩/١٢/٢٧و ١٩٩١/٦/١٠.

ينبغي تقاسمها والعمل من أجل عالم أكثر إنسانية».

وفي زيارته إلى فرنسا عام ١٩٨٨، دعا البابا إلى «حصول تقدم أكثر في الفهم من أجل خير كل الذين يعبدون إلهاً واحداً». وغالباً ما تكون المناسبات الدينية الإسلامية فرصة لإطلاق دعوة وتأييد للحوار. وفي يونيو/ حزيران ١٩٩٥، أعلن الفاتيكان أنه «قرر إضفاء الصفة الرسمية على علاقاته بالعالم الإسلامي وذلك عبر تشكيل لجنة تعمل كمنتدى لتبادل المعلومات بين المسيحيين والمسلمين».(١)

ثبت، وبما لا يدع مجالاً للشك، أن الفاتيكان يملك قوة التأثير وأن الاستخدام السياسي لهذه القوة كان ولا يزال حقيقة قائمة، بما يمثله الفاتيكان من مكانة دينية ومن قراءة طريق مهامه التي يمتزج فيها المقدس بالسياسي، والزمني بالروحي. وإذا تجاوزنا المرحلة التي كان فيها للبابا سلطة زمنية، أمكن التأثير على هذا التداخل الكبير في عمل البابوات السياسي، وخاصة في عهد البابا «يوحنا بولس الثاني» حيث يبلغ هذا التداخل أقصى مداه.

لقد ركز البابا، وعهده الأكثر سياسة في تاريخ الفاتيكان، على أن يقوم برعاية الكاثوليك. وتحول في عدد من زياراته الإفريقية إلى مبشّر. بيد أن هذه الرعاية تعرضت إلى مستويات ومعايير مختلفة من الأداء. فهو مثلاً لم يأخذ برأي الكاثوليك العرب في موضوع القدس عندما أقام علاقات مع «الكيان الصهيوني»، وجعل الكاثوليك في أوروبا الشرقية همه الأساسي عندما تقاطع هذا مع مصلحة غربية أساساً. وعندما وقع هؤلاء تحت وطأة الرأسمالية المتوحشة اكتفى بالصلوات من أجلهم. وبعد انتهاء سياسته الشرقية انتقد الرأسمالية بحدة وناصر الفقراء في أمريكا اللاتينية.

ثمة مساحة واسعة للبراغماتية في هذا الأداء، ولكن في خدمة أية وجهات؟ وأية مصلحة؟

يمكن القول أن البابا قد انشغل بالسياسة الشرقية منذ توليه مهامه حتى انهيار دول الكتلة الشرقية. وفي هذه المرحلة سعى إلى استرضاء الغرب، فركّز في تلك الآونة هجومه على الشيوعية ولاهوت التحرير، مع انتقادات ملطفة للرأسمالية. وفي سياق الاسترضاء، جاءت العلاقات مع الكيان الصهيوني وما سبقها وتبعها من «طلب الغفران من اليهود»(٢)

---

(١) المصدر نفسه، (بالأخص: جريدة الخليج الإماراتية ٢٠٠٠/١/١٢)، في الأصل السفير والنهار - بيروت.

(١) جورج عيراني، الفاتيكان وكاثوليك أمريكا والشرق الأوسط - جريدة السفير - بيروت ١٩٩٢/٩/٢٢.

بعد انتهاء السياسة الشرقية، أخذ البابا يركز على مثالب النظام الرأسمالي مرة أخرى. لكن ما بدا أنه قُدّم كاسترضاءات في وقت ما، تحول إلى ثوابت راسخة في السياسة الفاتيكانية، بل وقطع باستمرار خطوات إلى الأمام، رغم مخالفته جوانب عقيدية في كثير من الأحيان (الموقف من اليهود، موضوعات لاهوتية خاصة والأقليات وغير ذلك) ومخالفته لمصالح كنائس أخرى راسخة مثل الأرثوذكسية. هل يعني هذا تبدلاً ما، تحولاً ما في الوجهة؟ استناداً إلى ما سبق يمكن القول:

ثمة هامش براغماتي واسع يتيح وضع طاقة الكنيسة وقدرتها على التأثير في الاستخدام ولكن، دون تسمية الأشياء بأسمائها، إنه نمط جديد في محاولة استعادة السلطة الزمنية، ولكن عبر الظهور بمظهر الأكثر قدرة على تمثيل سياسات كبرى وتنفيذها، بحيث يصبح حضوره ودوره هما الأهم أو بالبحث في رسم هذه السياسات. وفي غمرة احتفالات الألفية الجديدة، التي حُضّر لها بعناية، جرى ويجري الإعداد أيضاً لتصورات بشأن المستقبل تتناول أساساً دور الكنيسة. وثمة دلائل واسعة على الرغبة في مزيد من السلطة (عبر التأثير) ومزيد من السياسة (عبر المشاركة). لكن هذا يبدو مرة أخرى مرتبطاً بنسق السياسات الكبرى، على نحو ما كان تحديد دور الفاتيكان منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، بل وما قبلها، وفي هذا الوقت بالذات ما يرسم علامة استفهام كبيرة عن شكل الوجهات التي سيسلكها الفاتيكان وفق نسق عمله في العقود الأخيرة من القرن العشرين، قرن التحولات الكبرى على كل صعيد.

كما شاهدنا كيف باتت علاقات الفاتيكان مع اليهود، ثم الكيان الصهيوني، تتسارع منذ عام ١٩٨١، وصولاً إلى الاعتراف عام ١٩٩٤، والخطوات التي تلته، ممثلة بالضغوط الهائلة التي تعرض لها الفاتيكان من الولايات المتحدة على مدى السنوات التي تولى فيها بولس السادس السدة البابوية؛ وهي ضغوط لم تظهر نتائجها إلّا مع تولي يوحنا بولس الثاني، وهو الأمر الذي أثار ويثير تساؤلات عديدة. حيث كان يوم ٩ فبراير/شباط ١٩٨١، يوم صافح البابا حاخام كنيس روما، ما اعتبرته الأوساط الصهيونية واليهودية حدثاً تاريخياً، ساعية إلى جعل المصافحة عملية متتابعة يكون لها دوماً ما يليها في العلاقات بين الكنيسة الكاثوليكية واليهود ـ الحركة الصهيونية. ورأت المنظمات اليهودية والصهيونية، ضرورة توظيف مزيد من الضغط، مع دوام التذكير بموقف الفاتيكان من النازية، لتثمر الضغوط عن صدور وثيقة أخرى عام ١٩٨٥، تحدثت للمرة الأولى، عن «إسرائيل» كمصطلح سياسي، مازجة بين اليهود كأتباع ديانة و«الكيان الصهيوني» ككيان معتبرة أن اليهود تميزوا بتمسكهم بعبادة

الخالق!! وبحب "أرض الأجداد" «الكيان »!!

تشكل الوثيقة الصادرة عن اللجنة الفاتيكانية للعلاقات مع اليهودية (وثيقة ١٩٨٥) التي تحمل إعلان قرار فاتيكاني، نقطة انعطاف حاسمة في العلاقة بين الفاتيكان واليهود، إذ هي تتجاوز ما جاء في وثيقة المجمع الفاتيكاني الثاني بتبرئة اليهود من دم المسيح، لتصل إلى حد إدانة الكنيسة، واتهام الكاثوليك بالعداء لليهود وبالعنصرية والجهل، داعية إلى أن يُستأصل من نفوس المسيحيين الكاثوليك أي أثر للعنصرية من شأنه تشجيع المعاداة للسيامية. وقد جاءت الوثيقة ببنودها استجابة لتوصيات البابا يوحنا بولس الثاني للجنة العلاقات مع اليهودية، حين خاطب أعضاء هذه اللجنة في ١٩٨٥/٣/٢، بالقول: «تابعوا محاولة إيجاد لقاء جديد مع إخوانكم اليهود حول التراث المشترك. إن الروابط بين الكنيسة والشعب اليهودي ترتكز على أساس ميثاق التحالف الإلهي. وإن الملاحقات الهائلة التي عانى منها اليهود، على مر التاريخ، قد فتحت الأعين وحرّكت قلوباً كثيرة». ويضيف البابا، «سوف يكون لازماً التوصل، في مختلف مستويات التربية الدينية المخصصة للأطفال والمراهقين، إلى تعليم ديني يُعرّف باليهود واليهودية».(١)

صدرت ردود على الوثيقة الفاتيكانية عام ١٩٨٥، عرضنا لبعضها في ثنايا البحث، وأبرزها:

١- أن المسيح والمسيحية ليسا للفاتيكان وحده، أو لبعض رجال الكنيسة، ليتصرفوا بعظيم تراثها سياسياً، وكيفما شاؤا أو كما يشاء اليهود.

٢- السيد المسيح ليس عبرانياً.

٣- أن الإيمان المسيحي يقول: إن المسيح هو "ابن الله"، والقول بأنه عبراني، يوجد إزدواجية في الإيمان، ويناقض الإيمان المسيحي في شأن طبيعة المسيح بالذات؛ فإما أنه من روح الله، أو أنه ابن يوسف النجار؛ فإما أن تكون أمه مريم العذراء، أو أنها ليس كذلك.

٤- الوثيقة تعطف على اليهود وتريد حمايتهم، على حساب الحقائق والقيم.

٥- ليس صحيحاً أن المسيح الذي ينتظره اليهود هو من ينتظر عودته المسيحيون.

٦- ما هو المبرر لتحقير المسيحيين الذين لا يرون فرقاً بين يهود اليوم ويهود زمن المسيح.

---

(١) فايز سارة: الفاتيكان وإسرائيل، تبديل في الاستراتيجية - جريدة السفير اللبنانية ١٩٩٢/٩/٢٢، وانظر: يوسف الياس ظاهر: رد على الوثائق الفاتيكانية.

٧- ألا تقول التوراة إن اليهود دخلوا غزاة إلى فلسطين.(١)

٨- إن فلسطين ليست أرض أسلاف اليهود، بل إن فلسطين هي أرض كنعان.

٩- إن الغرض من الوثيقة هو دعم اليهود في امتلاك فلسطين؛ وإذا كان الفاتيكان يهتم بالعلاقة الروحية التاريخية بين المسيحية وسواها من الأديان، وبمعتنقيها، فلماذا لا يهتم بشعب فلسطين؟

إن ما شهدناه ونشهده من اتفاقيات الذل والعار في الكيلو ١٠١، واتفاقية سيناء وكامب ديفيد وأوسلو ووادي عربة والرضوخ المشين في تسارع تطبيعي مع العدو، مصحوباً بسياسة التوسل، أوصلنا إلى سياسة الإملاءات واستباحة المنطقة العربية في غزو امبراطوري أعاد العالم العربي إلى مناطق النفوذ والهيمنة والتبعية.

والشائع في عالم اليوم، من الأمم المتحدة إلى الفاتيكان، أن الزمن الراهن هو بامتياز زمن أمريكي على الساحة الدولية، وصهيوني على مسرح الشرق الأوسط، ناهيك عن السباق الإيراني - التركي المحموم، لخلو الميدان من الند الموازن، بالقوة والقرار، والعالم العربي يمر بمرحلة من الهوان، صار من النادر العثور خلالها على من يقول «لا» لواشنطن، التي تتفرد في القرار وتهيمن وتستعلي على الآخرين، حتى في صفوف حلفائها، والكل يُغرّد داخل السرب راضياً.

وقد لا يروق هذا المشهد للكثيرين؛ لكن هذا هو واقع الحال. فالوضع الدولي يتربع على قمة هرمه قطب واحد، في دنيا تحكمها الرأسمالية وتوجهات العولمة التي تقودها الولايات المتحدة؛ ناهيك عن المؤسسات المالية والدولية، التي تعتبر المفتاح الرئيسي للتقويم ومشاريع التنمية في العالم الثالث، الممسوكة أمريكياً بسياساتها وأدوارها. وكان الاعتقاد أن هناك صمامات أمان ومرجعيات تواجه وتجهض مشاريع الهيمنة والاستئثار عند الانفلات، وتلجم القوة الغاشمة عند استباحتها للأعراف والمحرمات.

تأتي على رأس صمامات الأمان هذه الأمم المتحدة. فهذه المؤسسة، بالرغم من ضعف فعاليتها وهوانها وعجزها عن النهوض بالدور المنوط بهذا المنبر الأممي، بسبب تحكّم الكبار وفيتواتهم فيها، مؤسسة موجودة أصلاً للحيلولة دون العودة إلى شريعة الغاب في العلاقات الدولية. لكن حتى هذا الدور المتواضع تقزّم إلى حد الذوبان، بحيث لم يعد من المبالغة القول أن الأمم المتحدة تحولت إلى مؤسسة تابعة

---

(١) سفر الخروج ١٧ وما بعده.

للولايات المتحدة، نادراً ما يصدر عن المنظمة الدولية، خاصة عن مجلس الأمن، قرار لا تريده واشنطن. وأكثر من ذلك أن أصحاب المشاريع، وخاصة العربية، غالباً ما يذعنون للرغبة الأمريكية، فيسارعون إلى سحب مشاريعهم حتى لا يحرجوا واشنطن باستخدامها حق النقض «الفيتو». بل الأنكى من ذلك أن الولايات المتحدة تضطر أحياناً لمواكبة الإجماع حفظاً لماء الوجه، مثل تصويتها على القرارات ٢٤٢ و ٤٢٥، وقرار تعيين لجنة تقصي الحقائق في تدمير الكيان الإسرائيلي لمخيم جنين في الضفة الغربية، إلى تقرير غولدستون حول محرقة غزة وآخرها التلويح بإفشال أي مشروع أو أي قرار حيال الاستيطان في الأراضي الفلسطينية أو حول إعلان الدولة الفلسطينية. إنها واشنطن التي توظف ثقلها لمنع ترجمة هذه القرارات عملياً لكونها لا تحظى بموافقة الكيان الصهيوني.

إذا كانت المنظمة الدولية كمؤسسة صارت وارتضت أن تكون لا حول لها ولا قوة وهزيلة إلى هذا الحد، فهل غرق المجتمع الدولي الذي تمثله في حالة غيبوبة تمنعه من الاستيقاظ ضد هذه الشعوذة؟ هل دخل هذا المجتمع الدولي في سكون رتيب كالذي يغرق فيه الوضع العربي منذ أربعين سنة ونيف؟

ولا يقتصر الأمر على الأمم المتحدة وشللها، بل إن ترك الحبل على غاربه للكيان الصهيوني شمل الفاتيكان الذي لاذ بالصمت وكأنه في غيبوبة اختارها، أو أنه لم يسمع، حين يُصم أذنيه ويغلق عينيه عن حصار قوات الاحتلال الصهيوني لكنيسة المهد في بيت لحم وانتهاك كنيسة مولد السيد المسيح، هذا المكان المقدس الذي يُفترض أن يكون الفاتيكان المرجعية المسؤولة عن شؤونه وسلامته.

أليس من واجب هذه المرجعية التي تتحدث عن السلام أن تهرع، بما لها من سلطة روحية زمنية، إلى نجدة كنيسة المهد ونجدة من طلب السلامة فيها؟!

هل تم غض النظر لأنهم فلسطينيون؟ أم أن الوثائق والاتفاقيات الصادرة عن اللجان الفاتيكانية والاعتراف الفاتيكاني بهذا الكيان الاحتلالي، وروابط الأخوة بين الكنيسة والعدو الصهيوني، التي أوصى ونادى بها رأس الكنيسة الكاثوليكية بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثاني، البابا الأكثر سياسة في تاريخ الفاتيكان، هي التي فرضت هذه الانعطاف وبالعدائية السافرة، أم أنها وليدة التوافق بين الكنيسة الكاثوليكية واليهود؟! إن موقف البابا – الذي اكتفى بالصلاة من أجل «السلام»، الكلمة التي كانت ترانيم يومية في قاموس الفاتيكان كما هي في البيت الأبيض الأمريكي، لتصب في توفير كل وسائل الحياة والدعم للحركة الصهيونية وكيانها

العنصري، من دون أن يلفظ كلمة واحدة ضد أعداء «السلام» – يكشف عن انحياز بغيض سافر لهذا البابا، وبابوات الفاتيكان المتعاقبين، كما هي الإدارات الأمريكية المتعاقبة، إلى جانب الكيان الصهيوني على حساب القيم الروحية والإنسانية التي ينبغي أن تكون المحرك الوحيد لمواقف الفاتيكان، والمفقودة في حالة كنيسة المهد.

وتنفرط شهية الكراهية مع انفراط عقد الوثائق. فالوثيقة التي أصدرها الفاتيكان، سبتمبر/أيلول ٢٠٠٦، ودعا فيها إلى مواجهة ما أسماه «التيارات الإسلامية المتطرفة»، وقال إنها تهدف إلى فرض نمط عيش إسلامي على المجتمعات العربية والتركية والإيرانية، جاءت مكتوبة بانتقائية مشبعة بالاستعلاء، واحتكرت الاعتدال.. بينما صكت على الإسلام التطرف، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك عندما دعت المسلمين إلى التسليم بهذا الطرح، ووجهت دعوة صريحة إلى المسيحيين لمحاربة ما أسمته التطرف الإسلامي.

وتحمل الوثيقة العديد من الدلالات:

أولاً: حصر التطرف في الجانب المسلم فقط، كأنه محور شر، في مقابل محور الخير الذي يمثله الآخرون، وهذا منطق لا يستقيم معه أي حوار.

ثانياً، الوثيقة في حد ذاتها تشكل تدخلاً صريحاً في شؤون دول المنطقة، وتحريضاً علنياً بهدف الإيقاع بين النسيج الوطني، مسلمين ومسيحيين، ما يعني تحريضاً لضرب الاستقرار والسلم الاجتماعي في هذه الدول.

ثالثاً، إعلان الفاتيكان أن التطرف حكر على المسلمين فقط، مبرئاً العدو الصهيوني بما يرتكبه من محارق في حق شعب ما زال يحتل وطنه كآخر احتلال على وجه الكرة الأرضية، ويمارسه من إرهاب على مرأى ومسمع العالم.

رابعاً، هذه الوثيقة تجاهلت ما تمارسه جيوش الولايات المتحدة وحلفائها من الدول الغربية، في حشد إمبراطوري يعيدنا إلى دنس الغزو الصليبي، الذي تولى باباوات الفاتيكان التبشير بحروبها والدعوة لها وقيادتها. هذا إلى جانب الإعلان السافر للرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الابن أن تلك الحروب «صليبية» ومازالت عجلتها تطحن شعوب المنطقة، لتخلف جحافل من القتلى والمعاقين والأيتام والأرامل واللاجئين.. ناهيك عن الفوضى والتفتيت بديلين للاحتلال، تمشياً مع شعار فرّق تسد الذي استثمرته عبقرية الاستعمار البريطاني، دون أن نرى أي دور أو موقف واضح للفاتيكان!

لو افترضنا حسن النية لدى البابا بينديكيت السادس عشر، وحسن النية سمة

من سمات الإسلام الحنيف ورسول المسلمين (ص)، في ما ورد على لسانه في معرض محاضرته عن العقل والإيمان في معرفة الحقيقة، لكان قد سارع إلى الاعتذار عن زلة لسان، وهو ليس معصوماً، حرصاً من رأس الكنيسة الكاثوليكية على العلاقة الروحية بين الديانتين السماويتين وأتباعهما. والاعتذار هنا ليس نقيصة أو تنازلاً، بل هو في صميم الأديان السماوية ويعبّر عن قيمة التسامح والمحبة التي يتغنى بها البابا وإرث الفاتيكان الطويل.

كلنا نعرف أن الأديان تجمع ولا تفرّق، وتدعو إلى المحبة والعدل والسلام، وليس إلى زرع بذور الفتن والكراهية تحت دعاوى التنصير هنا وهناك، بديلاً عن التعايش بين أبناء البشرية، وتقديراً للاحترام المتبادل بين الدين الإسلامي والدين المسيحي وأتباعهما. وقد جاء كلام البابا، ليضرب عرض الحائط بهذه القيم الروحية السماوية، وليتناقض مع هذا الهدف وتلك القيم، بل ليدمر الأسس التي قام عليها حوار الأديان.

لقد بلغ السيل الزبى بهذا الخطاب وهذه الروح العدائية، حيث جاء كلام البابا في وقت نشهد فيه الحروب في العراق وفلسطين وأفغانستان وباكستان ولبنان، ليصب الزيت على النار، ما يعيدنا بالذاكرة والواقع إلى الباباوات من قبله، الذين جيّشوا أوروبا وقادوا حملاتهم الصليبية القذرة، بدلاً من أن يكون البابا السلف والخلف، بحكم دوره وموقعه، من يطفئ الحرائق، لا من يشعلها. إلاّ أن البابا بينديكيت السادس عشر، الذي استهل عهده في الفاتيكان خلفاً للبابا يوحنا بولس الثاني؛ بتصريحات عدائية اتهم فيها الإسلام بتبني الإرهاب.. والعنف، وزعم فيها أن الإسلام يتجاهل دور العقل، وأنه انتشر بالسيف، مما يؤكد أن البابا يوحنا بولس الثاني كان يخوض الحرب ضد الشرق الشيوعي، أما بينديكيت فيخوضها متحالفاً مع عواصم الغرب ضد الشرق الإسلامي؛ من باكستان إلى العراق، إلى أفغانستان، إلى السودان وصولاً إلى فلسطين ومصر، ما تجلى مؤخراً بالتدخل السافر في شؤون مصر الداخلية، على خلفية حادث كنيسة القديسين بالاسكندرية في تصريحات ودعوات فاتيكانية لحماية المسيحيين في الشرق. وكانت محاولات التدخل في هذا الشأن المصري قد تجاوزت الفاتيكان إلى تصريحات لقادة أوروبيين، للرئيس الفرنسي ساركوزي والمستشارة الألمانية ميركل، التي ذهب فيها هؤلاء إلى وجود اضطهاد للمسيحيين في الشرق يستدعي تدخلاً لحمايتهم.. وعلى نفس المنوال صاغ الاتحاد الأوروبي تصريحات مشابهة، جاءت إثر اجتماع لوزراء الخارجية الأوروبيين في العاصمة البلجيكية

(٢٠١١/١/٣١) بمشاركة سفراء دول الاتحاد الأوروبي، ٢٧ دولة، الذين توافقوا على نص يدعو وزيرة خارجية الاتحاد الأوروبي (كاثرين اشتون) إلى صياغة اقتراحات ملموسة بهدف تعزيز عمل الاتحاد الأوروبي لمصلحة الحرية الدينية.

في هذا السياق، يتحدث تقرير مؤسسة «راند»، الذي صدر بعد الاحتلال الأمريكي للعراق، تحت عنوان «الاستراتيجية الكبرى» ضمن استراتيجية الولايات المتحدة الأمريكية في الشرق الأوسط، وحمل إنذاراً واضحاً بما أسماه "تفتيت السعودية" إن لم تتوقف عن دعم الجمعيات الإسلامية، وتغيّر برامجها الإعلامية ومناهجها الدراسية. أما بالنسبة لمصر، فقد أشار التقرير بوضوح إلى أنها ستكون الجائزة الكبرى.(١)

ومما يزيد الطين بلة في خطاب الكراهية والعداء الفاتيكاني، ما قاله البابا بينديكيت السادس عشر (٢٠٠٩/٩/٦) في مدينة قيتيربي شمال روما، مذكراً بما يسمى «الهولوكوست» قائلاً بالنص «ذاك النزاع (الحرب العالمية الثانية) شهد مأساة المحرقة وإبادة الكثير من الأبرياء»، وتابع البابا الألماني الجنسية، «نتذكر الأحداث المأساوية التي أنتجت أحد أضخم النزاعات الرهيبة في التاريخ، وأسفرت عن مقتل عشرات الملايين، وولدت الكثير من العذابات». كما حث البابا المسيحيين على ألا يخشوا الالتزام سياسياً، وتابع «إن ذكرى تلك الأحداث تحثنا على الصلاة من أجل الضحايا والذين ما زالوا يحملون جراحها».

يقول الصحافي الألماني، والشيء بالشيء يُذكر، «كلاوس بولكين» في كتابه «الاتصالات السرية» و«أوليفيا أوجاردي» في كتابها «وحوش الأبوكاليبس»:«إن التعاون كان كاملاً بين زعماء الحركة الصهيونية وألمانيا النازية، رغم كل ما يقال من اضطهاد النازيين لليهود الألمان. وقد أثمر هذا التعاون برنامجاً يطلق عليه «هافارا» يتيح لليهود الهجرة من ألمانيا ومقايضة ممتلكاتهم بمعدات وأجهزة ومنتوجات من صنع ألماني». ويضيف «بولكين» و«أوجاردي» أنه قبل بداية الحرب العالمية الثانية، كان الصهاينة في فلسطين قد استقبلوا ٧٠ ألف مهاجر من ألمانيا من خيرة المثقفين اليهود، وتلقوا ما تعادل قيمته ١٤٠ مليون مارك من المعدات الصناعية الألمانية شكلت البنية التحتيه لصناعة الكيان الصهيوني. ويمضيان، وبموجب هذا البرنامج، جرى تكليف الزعيم النازي أدولف أيخمان الذي اختطفته الحركة الصهيونية من الأرجنتين وقدمته للمحاكمة كمجرم حرب بإنشاء ما أطلق

(١) جريدة الخليج الإماراتية، يوسف مكي، مقالة في العدد ١١٥٥٤، ٢٠١١/١/٦، للتأكد من هذه الفرضية الرجوع إلى موقع «راند للدراسات الاستراتيجية».

عليه «معسكرات زراعية» للشباب اليهود في النمسا لتدريبهم على حياة الكيبوتز، كما زار أيخمان فلسطين والتقى مع زعماء الأقلية اليهودية فيها ووضع القواعد الأساسية للتعاون بينهم وبين المانيا.(١)

ويعيد المؤرخون التعاون بين الحركة الصهيونية والنازية إلى:

١) عنصرية الحركتين، فكلاهما يؤمن بنقاء العنصر.

٢) هذا التعاون يفيد الطرفين؛ فهو يريح ألمانيا من عدد كبير من اليهود، والباقي يطالب بالاندماج في المجتمع الألماني، ويرفض النظرية الصهيونية.

٣) يساهم في تنشيط الهجرة بين يهود النخبة إلى فلسطين.

ويذكر الحاخام «موشيه شونفيلد» أن التعاون ظل قائماً حتى أثناء ما يطلق عليه «الهولوكوست».(٢) وعلى عادته، يطلق الفاتيكان المواقف، بل يلعب دوراً خبيثاً وخطيراً، في محاولة مستميتة ليركب موجة الحريات الدينية وحماية المسيحيين. ومن يتابع هذه المواقف، يدرك أن دعوات الفاتيكان هذه لن تنطلي على شعوب العالمين العربي والإسلامي، ولن تجمّل وجهه ولا تاريخه ولا ممارساته من خلال أطروحات ومصطلحات مخادعة، لا تنم إلاّ عن الكراهية والحقد والعداء، وتقترن بخيارات سياسية تلتقي مع السياسات الأمريكية – الغربية – الصهيونية. والفاتيكان يدرك أن المسيحية انطلقت من الشرق، كما الإسلام، والمسيحي العربي هو الابن الشرعي لهذه الأرض المقدسة. وفي العصر الأموي، كان الشاعر العربي النصراني، الأخطل، يدخل على الخليفة معاوية بن أبي سفيان في دمشق والصليب متدلياً على صدره؛ كما أن طبيب معاوية كان نصرانياً. وقد شهد العصر العباسي ازدهاراً كبيراً للحضارة العربية عموماً والإسلامية خصوصاً، حيث تلاقحت الحضارة الإسلامية مع معظم الحضارات الشرقية، وأسهمت شعوبها فيها، خاصة في عصر المأمون، حيث تمت ترجمة الفلسفة الرومانية واليونانية إلى العربية، وأن هذا الازدهار في العصر العباسي، تم عبر حوار بين شعراء وفلاسفة وعلماء من المسيحيين والمسلمين عبر العصور، في ما كانت أوروبا غارقة في ظلمات القرون الوسطى، ومحاكم التفتيش.

---

(١) كلاوس بولكين: الاتصالات السرية. وأوليفيا أوجاردي: وحوش الأبوكاليبس، عرض جريدة الخليج الإماراتية عدد، ١٠ يناير/كانون الثاني ٢٠٠٧.

وانظر: روجيه جارودي: الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، دار الشروق ١٩٩٩ ـ القاهرة ـ ص ١٥٤ـ١٥٦.

(٢) المصدر نفسه.

لقد عاش المسيحيون العرب جنباً إلى جنب مع المسلمين، لنحو خمسة عشر قرناً، وأسهموا معاً في بناء حضارة مشتركة، وواجهوا معاً، كالبنيان المرصوص، الغزاة والطغاة.

والإسلام لم يُنشر في العالم بالسيف كما قال من قال، بل انتشر بحب المسلمين للناس، وحب الناس لهم. أحبوهم فأحبوا الإسلام بحبهم، فدخلوا في دين الله أفواجاً. والمسلم لا يساوم على دينه، ولا يفرّط فيه، وإن نزلت به المحن، فالإسلام يغرس في نفس المسلم الاعتزاز بعقيدته، والإعلان عنها في عزة وفخار، باعتبارها عقيدة التوحيد والعقيدة الشاملة والخاتمة، كما يغرس في نفسه الإيمان بالرسالات السماوية والكتب السماوية والديانتين اليهودية والنصرانية وبنبوة موسى وعيسى عليهما السلام.

obeikan.com